حظيت بشرف المثول بين يدي حضرة صاحب الجلالة المغفور له
الملك فؤاد الأول في ١٤/٢/١٩٢٧ لتقديم هذا الكتاب بجلالته
ولسمو ولي عهده

ولي أسمى الشرف أن أتقدم به إلى رجل العدل والحق
حضرة صاحب السعادة عبد الرزاق السنهوري بك وكيل وزارة المعارف

محمد أحمد خليل

رئيس قلم الميزانية

١٩٤١/١١/١٩

نال هذا الكتاب جائزة السبق فى مسابقة مجلس مديرية الدقهلية
وقرر المجلس تدريسه فى جميع مدارسه

المطالعة العلوية

انشاء وتاريخ وأدب

تأليف

محمد أحمد خليل

مدرس بمدرسة البنات الابتدائية بالمنصورة

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

(الطبعة الأولى)

١٣٤٥ ﻫ = ١٩٢٦ م

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

اهداء الكتاب

إلى الشباب الناهض ، إلى فتيان مصر وفتياتها

إلى طلاّب العلم وطالباته

تلك دروسُ إنشاء وتاريخ وأدب جالت فى جَنَانى

فنطق بها لسانى ، وقيَّدَها بَنَانى

وهأنذا أهديها اليكم ، فهى ثمرةُ اشتغالى بتربيتكم ؟

محمد احمد خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فقد سأل مجلس مديرية الدقهلية رجال العلم فى مديريته أن يتباروا فى تأليف كتاب يسمى (المطالعة العلوية) يشتمل على ما للأسرة العلوية الكريمة من الفضل فى إحياء مصر وترقيتها وخص بالذكر أقطابها الثلاثة المرحوم محمد على باشا والمغفور له اسماعيل باشا وحضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم أحمد فؤاد الأول ليكون ذلك الكتاب نبراساً للناشئة الحديثة يهتدون بنوره إلى معرفة أسباب النهضة المصرية حتى يعرفوا لذى الجميل جميله

ولما كنت ممن يدينون بحب هذا البيت الكريم ويؤمنون بأن جد هذه الأسرة هو باذر بذور الاصلاح فى أرض مصر وأن اكثر خلفائه ينسجون على منواله وأن الطلاب يجب أن يتعلموا ذلك استعنت الله وجريت فى ميدان المباراة وألفت هذا الكتاب متنكباً طريقة تأليف الكتب التاريخية الجافة وانتهجت فى تأليفه نهجاً جديداً فجعلته مسائل عامة ودروساً منفصلاً بعضها عن بعض فى حياة مصر وسيرها فى سبيل الرقى لحمة هذه الدروس الحب الخالص والود الصميم لأولياء نعمتنا وسداها

الاذعان البرىء من كل رياء ونفاق وتوسلت إلى العلى القدير برسوله الأعظم محمد صلى الله عليـه وسلم أن يقينى الزلل ويعصمنى من الخطل ويهدينى سواء السبيل .

وإنى أحمد الله سبحانه وتعالى على جزيل نعمه وعظيم فضله فقد جاء هذا الكتاب وفق المرام وحكم له المحكمون بالسبق وبأنه يشترك هو وكتاب حضرة محمد افندى حافظ فى الجائزة الأولى فقد سد كل منهما فراغاً خاصاً هذا للمدارس الابتدائية وما داناها وذاك للمدارس الآولية .

وإنى استعين الله فى طبعه ونشره وهو نعم المولى ونعم النصير

(١)
مجدُ مِصرَ القديمُ

لا يُعرفُ بين أممِ الأرضِ أمةٌ أقدمُ حضارةً ومدينةً وعِلماً من مِصرَ، وأرقى الأممِ الآنَ تعنو لمجدِ مِصرَ، وتعترفُ بسبْقِها، وتَشهدُ بأنها كانت فى عصورِها الأولى، سيدةَ الأممِ، وقبلةَ أنظارِ الدُّوَلِ، ومهبطَ العِلمِ، ومهدَ المدنيةِ، وفراشَ الحضارةِ الوثيرَ، وتلك آثارُها، وما جادت به قرائحُ علمائها، تَنطقُ بافصحِ بيانٍ، وأعذبِ لسانٍ، شاهدةً بما لها من مجدٍ شامخٍ، وسلطانٍ عظيمٍ، واستقلالٍ تام.

كان ذلك قبلَ الاسلامِ بنحوِ أربعةِ آلافِ عامٍ، ثم وَخَطَ الشيبُ رأسَها، وَقَوَّسَ الكِبَرُ ظهرَها، وكاد يقفُ ماءُ الحياةِ فى شَرايينِها، ففقدتِ استقلالَها، وسامَها الفرسُ العذابَ حيناً من الدهرِ، إلى أن خلَّصها من بينِ براثنِهم الإسكندرُ الأكبرُ، وأسلمها إلى خلفائه البطالسةِ، الذين كان شرُّهم أكثرَ من خيرِهم، ولم تلاقِ منهم إلا ضَعفاً عَلَى ضعفٍ، حتى انتقلت إلى أيدى

الرومانِ ، وظلت خاضعةً لحكمِهم سبعةَ قرونٍ ، لقيتْ فيها من العذابِ والهوْنِ والظلمِ والاستبدادِ ، ما أفقدها كلَّ معانى الشجاعةِ والاحساسِ الشريفِ .

تلك ألفُ سنةٍ ، حكمَ مصرَ فيها الأجانبُ ، ومُحِيَ اسمُها من صحيفةِ الوجودِ ، وأفَلَ نجمُها ، وصار ما كان لها من عزٍ وسؤددٍ ، كما حكى عن خيالِ الطيفِ وسناتُ .

وفى السنةِ العشرين للهجرةِ النبويةِ الشريفةِ ، أخذَها من الرومانِ عَنْوَةً جيشٌ إسلامىٌّ ، يقودُه عمرُو بنُ العاصِ ، رضِيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢)

مِصْرَ فى العُصور الوسطى

بعد أن فتح عمرُو بنُ العاص مصرَ، صارت ولايةً اسلامية، مُدةَ الخلفاء الراشدين والدولةِ الأُمَوِيةِ، وصدْرَ الدولةِ العباسيةِ، يُوَلِّى عليها الخلفاء الوُلاةَ والياً بعد والٍ، وليس يَخْفَى عَلَى ذى اللُّبِّ أن هؤلاء الولاةَ لَيْسوا ملوكاً وإنما هم مأجورون، جُلُّ هَمِّهِم أن يعودوا إلى بلادهم، بعد تَرْكِ مَناصِبِهم، وقد غَنِموا غُنْماً عظيماً، وكنزوا من الأموالِ شيئاً كثيراً، لذلك لا يُرجَى فى عهدِ مثلِ هؤلاء أن يرتقىَ للبلادِ شأنٌ، ولا أن تنهضَ من كَبْوَتِها، بل إنها قد تَسْتَسْلِمُ للكسلِ وتستكينُ للذُّلِّ، ذلك كان شأنَها وهى ولايةٌ إسلاميةٌ نَيِّفاً وثلثمائةٍ وأربعين سنةً، ثم أراد اللهُ سبحانه وتعالَى أن تستقلَّ، وأن يكونَ لها فى العالَمِ ذِكْرٌ فاستقلَّ بها الفاطِميُّون، ثم الأَيُّوبيُّون، نحو ثلثمائةِ سنةٍ، كانت فى خلالِها مصرُ قِبْلَةَ أنظارِ العالمِ الإسلامىِّ، فقد دَافَعَ ملوكُها عن الإسلامِ فى هذا العهدِ دِفاعاً عظيماً، ووقفوا فى وجهِ الصَّليبيِّين وقفةَ

اللَّيْثِ الهَصُورِ ، وإن كان ملوكُ الدولةِ الأيوبيةِ قد اقترفوا إثماً كبيراً ، ذلك أنهم أكثروا من شِراء المماليكِ ، والاعتمادِ عليهم فى الحروبِ وحِفْظ النظامِ ، وإدارةِ شئونِ البلادِ ، حتى صارت لهم الكلمةُ العُليا ، وصاروا بعد الأيوبيين ملوكاً يَحتَكمون فى البلاد ، وَيَعِيثون فى الأرضِ الفسادَ .

---

(٣)
العَصْرُ المُظلِمُ

لقد أتى عَلَى مصرَ حينٌ من الدهرِ لم تكن شيئاً مذكوراً غابت فيه شمسُ العلمِ ، وأفَلَ نجمُ الإصلاحِ ، وخيَّمَ الجهلُ عَلَى نواحى الديارِ ونشَرتِ المظالمُ والاضطراباتُ أَلْوِيَتَها عَلَى رءوس المصريين ، وفُقِدَ الأمْنُ عَلَى الأرواحِ والأموال ، وانتشرَ الخوفُ بين الأهلين ، وعمَّ الفسادُ ، وصار السكانُ سِلْعةً تتحكم فيهم الأجْناد

وذلك أن المماليكَ الذين جلبهم ملوكُ الدولةِ الأيوبيةِ من بلادِ الكُرْدِ وما جاورها واتخذوهم عبيداً صاروا يتدخَّلون فى شئونِ البلادِ ويستبدُّون بالأمر ، حتى آل مُلكُ تلك الأمةِ المجيدةِ إليهم ، ولم يُهَذِّبْ نفوسَهم مُهَذِّبٌ من العلم ، ولم يَزَعْها وازعٌ من الدين ، وظلوا يُذِيقون المصريين أنواعَ العذابِ ، ويرتكبون فى البلاد شَرَّ المظالِم ، ثلاثةَ قرونٍ إلا قليلاً ، حتى فتح العثمانيون مصرَ فى أوائلِ القرنِ العاشِرِ الهجرىِّ ، وَوَلَّوْا عليها الوُلاةَ ، وقبضوا عَلى زِمامِها ثَلَثَمِائَةِ سنةٍ إلا عشرا ، لَقِيَتْ فيها مصرُ من الظلمِ

والاستعبادِ ، ما لا يَكادُ يتصورُه عَقْلٌ ، ولا يُصدقُه إِنسانٌ ، حتى قلَّ الزرعُ ، وضاق الذرعُ ، وفتَكَ الجوعُ بالرعيةِ ، وثارَ الناسُ بعضُهم عَلَى بعضٍ ، وعمَّت الفَوْضَى وانتشرت الأَوبئةُ ، وأُخِذَتْ عَلَى الأَهلين السبُلُ ، ولا مُغيثَ ولا راحمَ . ليت الأَمرَ وقف عند هذا الحدِ من ظُلْمِ المماليكِ واستبدادِ العثمانيين ، بل إِن الله سبحانه وتعالى سلَّطَ عَلَى الأمةِ المصريةِ نابليون بونابرت ، بَطَلَ فرنسا العظيمَ ، جاءها على رأسِ جيشٍ جرَّارٍ ، ودخلها فاتحًا ، وجالت جيوشُه فى أرجاءِ الديارِ ثلاثةَ أعوامٍ ، أهلكت فيها الحرْثَ والنسْلَ ، وأتت من المظالم ما لا حدَّ لوصفه .

(٤)

الفَوْضَى فى مِصْرَ وأسبابُها

إذا شئتَ أن تتصورَّ ما كان يُقْتَرَفُ فى مصرَ من الآثامِ فى عصرِ المماليكِ ، والعثمانيين ، والفرنسيين ، فاعْرِضْ أمامَ نظرِكَ تلك الأمورَ ، أنَّ المماليكَ قومٌ جُهلاءُ ، لا عَهْدَ لهم بالعلمِ ولا بمعاهدِه ، وأن لغتَهم ليست عربيةً ، وأنهم غِلاظُ الطِّباعِ ، قُساةُ القلوبِ ، منتشرون فى أرجاء القطرِ ، قابضون على زمامِ السُّلطانِ ، مستأثرون بكلِّ ما تجودُ به الأرضُ من حبٍّ ونباتٍ ، وأن العثمانيين لا يَقِلُّون عن المماليكِ خشونةً ولا قسوةً ولا جهلاً ولا غِلْظةً ، وأن الدولةَ العثمانيةَ كانت تُرْهِقُ البلادَ من حينٍ إلى حينٍ ، بطائفةٍ من جُنْدِها العُصاةِ ، تُرِيحُ منهم بلادَها ، وتُعَكِّرُ بهم فى مصرَ الصفاءَ ، وأن الأعرابَ الضاربين حولَ وادى النيلِ كانوا يتربَّصُون بالمصريين الدوائرَ ، ويَنْقَضُّون عليهم ، فيضاعِفُون مصائبَهم ويزِيدون فى وَيْلاتِهم ، وأن المصريين فقدوا كلَّ

ما كانوا يُعْرَفون به من شجاعةٍ ورغبةٍ فى الرقِّ ، وترَبَّوْا عَلَى الجُبْن ، ورَتَعُوا فى مَرَاتِعِ الذُّلِّ والهَوانِ .

إذا عَلِمتَ ذلك ، سَهُلَ عليك أن تُدْرِكَ أن مِصْرَ كانت فريسةً بين أنيابِ الوحوشِ الكاسِرةِ ، ومَخالبِ الأُسُودِ الضاريةِ ، فالمملوكُ فى إقليمِه سَيِّدٌ مُطَاعٌ ، والمِصرىُّ عبدٌ قِنٌّ ، يَعملُ بَيَاضَ نهارِه وسوادَ ليلتِه فى حَرْثِ الأرضِ وزَرْعِها ، وقد لا يُصيبُ عند الحصادِ ما يَسُدُّ به رَمَقَهُ وَرَمَقَ أبنائِه ، والوُلاةُ ظالمون غاشمون ، لا همّ لهم إلا استلابَ ما فى أيدى الناسِ ، وضَرْبَ الضرائبِ الفادحةِ عَلَى السكان ، لا يَرْعَوْنَ فى ذلك إلاًّ ولا ذِمةً ، والجنودُ مفْسِدون للنظام باسْمِ النظامِ ، ومُنْتَهِكون للحُرُماتِ ، ومُزْهِقون للأرواحِ ، وهم حُرّاسُ البلادِ وحُمَاتُها ، والأعرابُ لا تنقطعُ غَزَواتُهم ، ولا ينقضى شرَهُهُم ، والمصريون لا راحمَ لهم ولا مُجيرَ .

---

(٥)

مِصْرَ تَشْكُو الى الله

أىْ ربِّ ومنك العدلُ ، ومن خَلقِك الجَوْرُ ، خلقتنى جَنةَ الدنيا ، ومنحتَ أبنائى الأولين عقولاً راجحةً ، وأفكاراً ثاقبةً ، رفعوا بها ذِكْرِى ، ونشروا ظِلِّى ، وأنفذوا فى المالكِ أمْرِى ، ومدُّوا عَلَى الدُّوَلِ سُلطانى ، ثم سلبتنى تلك النعمةَ ، ورميتنى بقومٍ لَيْسُوا أكفائى ، جلسوا عَلَى عُروشِ عَوَاهِلِ السالفين ، وفَرَاعِنتى الأقدمين ، فهبطوا بى من سماءٍ عاليةٍ ، إلى هاويةٍ سحيقة ، وعَمَدوا إلى معاهدى العاميةِ فجعلوها يبَاباً ، وانقضُّوا عَلَى جداولى وأنهارى فأحالوها سَرابًا ، وعَدَوْا عَلَى حُريتى واستقلالى فأضاعوهما ، وأتَوْا عَلَى كل ما كان يتصفُ به المِصرىُّ من ذكاءٍ وعِلمٍ وشجاعةٍ فمَحَوْا آثارَه ، يا إلهى ما ذا جَنَيتُ من الذنوبِ حتى أرْسُفَ فى قيودِ الذلّ دهراً طويلاً ؟ ماذا اقترفت من الآثامِ حتى أُكَبَّلَ فى أغلالِ الاستبدادِ قُروناً عديدةً ؟ إن كان أبنائى قد كَفروا نعمتى وعَقُّوا ملوكَهم فى الأيامِ الفارطةِ ، فَجَزَيْتَ ذَرارِيَهم بما قدَّمت أيْدِى

الآباء ، وسلَّطتَ عليهم هؤلاء القُساةَ الظالمين ، فحسْبُهم ما أصابهم من انحطاطٍ وتأخرٍ ، حَسْبُهم أن يُشترى الملوكُ اليومَ بالدراهمِ ثم يكونَ ملِكاً عليهم غداً ، حسبهم أن تَصيرَ بلادُهم منْفَى المُجْرِمين الذين تَضيقُ بهم بلادُ العثمانيين ، حسبهم أن تُطْفَأَ جَذْوَةُ العلمِ فى بلادهم بعد أن كانت كعْبَةَ القُصَّادِ ، حسبهم أن تمتدَّ يَدُ البلَى إلى آثارِ آبائهم فتَعْبَثَ بها وتُزَعزِعَ أركانَها ، حسبهم ما يُكابدون من جوعٍ وعُرْيٍ وفِقْدانِ أَمْنٍ ، حسبهم أنهم صاروا يُساقُون سوقَ الانعامِ إلى حيثُ يُريد الغاصبون ، حسبهم كلُّ ذلك ، وهأنَذِى أستغفرُكَ لهم ، وأُقِرُّ بين يديك بأنهم تابوا وآمنوا ، وعاهدونى عَهْداً أكيداً عَلَى ألا ينسَوْا حقوقى ، ولا يكفرُوا نعمةَ أُولِى الأمرِ منهم .

اللهم إنك أرحمُ بهم منى ، فأَنقِذْهم من هـذا العناء ، إنك رءوفٌ رحيمٌ .

---

(٦)

المصريون يسألون الله الخلاص

يا إلهَ العالَمين، إنه قد مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ، وحلَّ بنا الشقاء، ونزلتْ بنا الوَيْلاتُ من كلِّ جانبٍ، حتى أَلِفْنا الذُّلَّ واستعذبْنا الهَوَانَ، اللهم إنك تعلمُ أنَّا أبناءُ أمةٍ ذاتِ مجدٍ خالدٍ، وقَدَمٍ في المدنيةِ راسخةٍ، وقد تنكرت لنا الأيامُ، وعَبَسَ الدهرُ في وجوهنا، وكشَّرَ الزمانُ لنا عن نابهِ، فسقانا كُؤوسَ الاستعبادِ مُتْرَعاتٍ، فاسْقِنا اللهمَّ جاماً من الحريةِ التى طالما كانت أرضُنا أَخْصَبَ منَابِتِها، اللهم إنا قد ذُقْنا آلامَ الاستعمارِ حتى سَئِمْناهُ، فأَذِقْنا بفضلِكَ طَعْمَ الاستقلالِ الذى هو قِوَامُ حياةِ الشعوبِ، ومَنْبَعُ تقدُّمِها ورقيِّها.

يا إلهَنا، ارحمْ كِبَا نَتَنا، واغفرْ لآبائنا ما قد فَرَطَ من عقوقِهم لملوكِهم، حتى أَذَلَّتَهم عَلَى أيدى أعدائهم، ها نحن أُولاءِ جئناك، لائذين بحِماكَ، لاجئين إلى كَنَفِكَ، نسألُكَ أن تَكْشِفَ هذا الكَرْبَ، وتُزِيلَ هذه الغُمَّةَ، وتَفُكَّ قيودَ أَسْرِنا، وترْزُقَنا

من لَدُنْكَ فتًى شُجاعاً ، يُقيلُ عَثْرَتَنا ، وَيُهْلِكُ عدوَّنا . ويأخذُ بيدنا ، وَيَنْهضُ بأُمتِنا نهضةً مباركةً ، تُعِيدُ لها عِزَّها القديمَ ، ومَجْدَها الدارسَ .

اللهم انظرْ إلى هـذا الشعبِ الوادعِ ، نَظَرَ رحمةٍ وشفقةٍ ، وابعث فيه من يُقَطِّعُ أغلالَ أَسْرِه ، ويقودُه إلى مراقي الفَلاحِ ، حتى يأخذَ مقعدَه بين الشعوبِ ، وإنك إن تفعلْ ولا نظنُّك إلا فاعلاً ، فسنكونُ لمبعوثِك خيرَ من يُؤْمرون فيأتمرون ، وَيُنْهَوْن فينتهون ، فما أعذبَ الرِّضا بعد الغضبِ ، وما أعظمَ النعمةَ بعد النقمةِ ، وما ألذَّ المِنّةَ بعد المِحنةِ .

محمد علي باشا

(٧)
نشأة محمد على باشا

فى أواخرِ القرنِ الثانى عشرَ الهجرىّ ، وُلِدَ بمدينةِ قَوَلَةَ من أعمالِ الدولةِ العثمانيةِ فى أَوْرُبّةَ مولودٌ غريبُ الأطوارِ عجيبُ الأخبارِ ، يُقالُ له محمدُ علىّ ، فَقَدَ أباه وأمَّهُ وهو فى مُقْتَبَلِ عُمُرِه ، وفَجْرِ حياته ، فعاش يتيماً فقيراً ، كَفَلَهُ عمُّه ثم أحدُ أصدقاءِ أبيه ، فنشأ نَشأَةً تُشبِهُ فى كثيرٍ من الوُجوه نشأةَ سيدِ الأنامِ عليه الصلاةُ والسلامُ ، كِلاهُما يتيمٌ فقيرٌ أُمِّىٌّ ، يحنو عليه ذوو قرابتِهِ وتُواسيه حليلةٌ غنيةٌ بمالِها وجاهِها ، وكلاهما عالى النفسِ ، كبيرُ الآمالِ ، يُعِدُّ نفسَه لأمرٍ خطيرٍ ، ويَرُوضُها على معالجةِ الشئونِ العظيمةِ ، ويَسْبَحُ بها فى الملكوتِ الأعلى .

هذا يُؤهلُها لهدايةِ العالَمِ بأسرِه ، ودَكِّ عُروشِ الجبابرةِ ، وتخليصِ الضعفاء من أيدى الأقوياء ، ودَعْوَةِ الناسِ كافةً إلى عبادةِ اللهِ ، وإرشادِهم جميعاً إلى أنهم عندَه سواء ، لا يتفاضلون إلاّ بالتقوى .

وذاكَ يستعدُّ لإنقاذِ شعبٍ مظلومٍ ، والأخـذِ بيدِ أمةٍ مَهِيضَةِ الجَنَاحِ .

كان وهو فى إبّانِ نشأتِهِ ، ورَيْعَانِ شبابه ، تحدثه نفسُه أحاديثَ عجيبةً لا يعلمُ مصادِرَها . وتتواردُ عليه خواطرُ عظيمةٌ لا يَعْرِفُ مَآتِيَهَا ، وتمرُّ أمامَ نظره أشباحُ العظمةِ وصورُ الجلالِ ، وتجولُ فى نفسه أخيِلَةُ المُلْكِ وأُبَّهَةُ السلطانِ ، فلا يَحْفِلُ بكل أولئك ، ويقولُ هواجسُ وأوهامٌ أو أضغاثُ أحلامٍ . وما دَرَى أن العنايةَ الإلهيةَ ، والإرادةَ الصَّمَدَانيةَ تَخْبَآنِ له فى جَوْفِ المستقبلِ ، عَرْشاً يطمئنُّ لقدميه ، ومُلْكاً شاسعاً يَعْنو لعظَمَتِهِ ، وأمةً هادئةً تتخذُه مَناطَ آمالِها ومَهْبِطَ أمانيِّها ، ذلك عرشُ مصرَ ومُلْـكها ، وتلك الأمةُ المصريةُ التى سألت ربَّها أن يُحْسِنَ خلاصها من ظلم الظالمين .

(٨)

محمدُ عليّ في طريقه الى مصرَ

لما تَأَذَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى لمصرَ أن تستيقظَ من سُباتِها العميقِ ، وأن تنهضَ من كَبْوَتِها ، وتَنْفُضَ غُبارَ الفَوْضى عن عاتِقِها ، وتستنشقَ نسيمَ الحريةِ العليلَ ، رَثَى لحالِها واستجاب دعاءها ، فأَوْحَى إلى الدولةِ العليةِ العثمانيةِ أن تَبعَثَ بجيش يَقْهَرُ الفرنسيين الذين دخلوا مصرَ واستباحوا حُرُماتِها ، وأزهقوا أرواحَ أهلِها ، وشاء جلَّتْ قدرتُه أن يَكونَ بين جنودِ تلك الحَمْلَةِ ؛ هذا الفتى الذى جالت فى نفسِه خواطرُ العَظَمةِ ، وسنحت أمامَ بَصَرِه سوانحُ السِّيادةِ ، ذلك هو محمدُ عليٍّ ، وما كاد يركب ثَبَجَ البحرِ ، ويُوَلِّي وجهَهُ شَطْرَ مِصرَ حتى هتف بها ، لَبَّيْكِ لبيك ، أأنتِ التى لازَمَني خَيالُها ، وأَرَّقَني طَيفُها ، وساورتني هُمومها ؟ أأنتِ السجينُ الذى طالما مَرَّ شبحُه أمامَ عيني فكَدَّرَ صَفْوي وأَقْلَقَ مَضْجَعي ؟ لبيك لبيك أيتها الأمةُ الكريمةُ ، هأنذا قد جئت لخلاصِك بعد أن رأيتُ تقلبَ وجْهِك فى السماء ، وسمعتُ

شَكاتَكِ ، وعلمتُ أن عواملَ الشقاء اتحدت عليك ، وأن الفوضى قد ضربت أطنابها فى ديارك ، وأن الفَنَاء يتمشّى فى جسمك ، كما يتمشى الداء العَيَاء فى جسم العليلِ الذى لا يُرْجَى له شِفَاؤه ، جئتُ إليك يجذبنى حبك ، ويَدْفَعُنى الأملُ فى خَلاصِك ، وإنى بعونِ اللهِ مجيبٌ دُعاءك ، مُحقّقٌ رجاءك ، فاصبرى حتى أُعِدّ للأمر العُدَّةَ ، وآخُذَ له الأُهْبَةَ ، وأستشيرَ المُحنَّكين من الرجالِ ، وأستعينَ بأهل الاختبار والدِرْبَةِ ، حتى إذا طعنتُ أعداءك ، كانت طعنتى نجلاءَ ، وكانت نجاتك من شرِ هؤلاء الظالمين مضربَ الأمثال .

(٩)

الفرنسيون فى مصر

نابليون بونابرت بطلُ فرنسا الأوحدُ ، وفارسُها المِقْدامُ ، حارب دُوَلَ أُورُبَّةَ كلَّها ، فهزم جيوشَها ، ودكَّ عروشَها ، وخضعت له الرِّقابُ ، ودانت له الممالكُ ، جاء إلى مصرَ فى أوائل القرن الثالثَ عشرَ الهجرىّ عَلَى رأسِ جيشٍ كبيرٍ وطائفةٍ عظيمةٍ من علماء بلاده وفلاسفتها ، وما كاد جنودُه يلتحمون بجنودِ المماليكِ المصريين حتى ولّى المماليكُ الأدبارَ وفرُّوا هاربين ، وتسلَّم نابليونُ مصرَ ، وظلَّ بها جيشهُ ثلاثةَ أعوامٍ وأياماً ، أتى فيها جنودُه من الظلم وأعمالِ الوحشيةِ ما لا يكاد يَخطُرُ عَلَى بالٍ ، أما العلماء فقد بحثوا فى آثار مصرَ ونقّبُوا ، حتى اهتدَوْا إلى حلِّ رُموزِ الكتابةِ المصريةِ القديمةِ ، وعادوا إلى ديارهم بثروةٍ من العلم وفيرةٍ .

جاءت جيوشُ الدولةِ العثمانيةِ ، فأنقذت مصرَ من شَرِّ جيوشِ الفرنسيس ، وقبضت عَلَى زمامِ البلاد ، عند ذلك بَرَزَ

إلى مَيْدانِ العملِ فَتَى الفِتْيَانِ ، محمدُ عليّ ، فقد قرأ رؤساؤه بين ملامح عينيه آياتِ الذكاء ، ولمحوا علاماتِ الإخلاص ، فرفعوا شأنَهُ ، ونشروا ذِكْرَهُ ، وصار يرتقي من مَنْصِبٍ إلى مَنْصِبٍ ، ويتخطّى الأعناقَ عُنُقاً عنقاً ، وهو في كل دارٍ حلّ بها ، وبين كل عشيرةٍ خالطها ، ظافرٌ بحبِّ عُشَرائه وإعجابهم ، ولذلك كان مَوْضِعَ ثِقَتِهم ، ومَحَلَّ إجلالِهم ، يُولِيهم شفقةً وحناناً ، ويُولُونه وُدّاً وإذعاناً ، فالجنودُ بلغ حبُّهم له مبلغَ العبادةِ ، والأهلون شَخَصوا بأبصارهم إليــه ، وتَمَنَّوْا الخلاصَ عَلَى يديه ، وهكذا سَيْطَرَ عَلَى القلوبِ ، وجلس عَلَى عروشها ، وقبض عَلَى أزِمَّتِها .

(١٠)

وِلاية محمد على باشا على مصر

جاب محمدُ على باشا أرجاءَ مصرَ ، وغَشِيَ مجالسَها وحادثَ سكانَها ، وأصغى إلى شكاياتِهم ، ونظر فى أخلاقِ أهلِها وطباعِهم ، وما خلَّفَ آباؤُهم من آثارٍ خالدةٍ وتاريخٍ مجيدٍ ، وجال فى غُدُواتِه وَرَوْحاتِه بِرُقْعَةِ أرضِها ، فوجد تُرابَها تِبْراً ، ونهرَها كَوْثراً ، ونظرَ نظرةً فى نجومِها وجوِّها ، فألفَى سماءها صافيةَ الأديمِ ، وهواءها نسيماً عليلاً ، ورأى العُنصرَ المصرىَّ مع ذلك تتقاذفُه رياحٌ من الظلمِ هوْجاء ، وتتجاذبُه قُوًى مختلفةٌ ، وتتحكمُ فى حريتِه وفى خيراتِ بلادِه طوائفُ متباينةٌ ، لا تُفَكِّرُ طائفةٌ منها فى رقِيِّ مِصرَ ، ولا فى سعادةِ المصريين .

أعْظَمَه ذلك ، ووقعَ منه كل موقِعٍ ، وامتلأ قلبُه شفقةً على هذا الشعبِ الهادىءِ المستكينِ للظلمِ والاستبداد ، فأخذ يُفَكِّرُ فى طريقَةِ إنقاذِ هذه الأمة من شر الظلمِ والظالمين ، وصار ينصُرُ المصرىَّ ويأخُذ بيده إذا رأى العذابَ ينصَبُّ على رأسِه ، وكذلك

صار يتحببُ إلى الجند كبيرِهم وصغيرِهم ، فتعالَمَ المصريون والجنودُ أمرَه ، وتمنَّى الأولون أن يكونَ هذا الرجلُ هو الذى طالما نَشَدُوه لإنقاذِهم ، وعقدَ الآخرون الخناصِرَ علَى مُناصَرتِهِ والانْضِواءِ تحتَ لوائه إذا همَّ بأمرٍ خطيرٍ .

وهكذا سَرَى هـذا الاسمُ الكريمُ فى طولِ البلاد وعرضِها سَرَيانَ الكهرباءِ ، وأحبَّه المصريون حُبًّا دونه حبُّ الأبناء لأبيهم ، وتجمَّعوا يشاوِرُ بعضُهم بعضاً فى أمرِ هذا البطلِ العظيم ، وكيف يُوَلُّونه أمْرَهُمْ ويُسْلِمُونه زمامَهم ، فنطقتْ ألْسنتُهم بما استكَنَ فى أفئدتهم ، ونادَوْا به والياً علَى بلادِهم ، رَضِيَتِ الدولةُ العثمانيةُ أو غَضِبتْ ، وأقبل الجنودُ والضباطُ ، يُقدِّمون بين يديه طاعتَهم وَمُظَاهَرَتَهُمْ .

(١١)

خواطرُ محمد على باشا

أحببتُ هذا البلدَ وأهلَه فأحبونى ، وأوْليتُهم عَطْفى فوَلَّوْنى وِلايَةَ أمْرِهم ، وقد صار حَتْماً علىَّ أن أُحققَ رجاءهم وأُجْزِيَهُمْ أَجْرَ ما صنعوا ، ولكنْ ما الحيلة ؟ وهؤلاء أعدائى والمنافِسون لى من رجالِ الدولةِ، يُوغِرون صَدْرَها ويُلْقُون فى رُوعِها أننى وَليتُ هذا الأمرَ بغير إرادتها ، فأنا بالعاصِى لها أَشْبَهُ منى بالمُطيع ، وهؤلاء المماليكُ وساداتُهم فى البلادِ يَطْمَعون فى استرجاعِ مُلْكِهم ، وإعادةِ سُلطانهم ، ويقفون عَقَبَةً كَئُوداً فى وجهِ من يَسيرُ بمصرَ إلى الأمام ، وهؤلاء جنودى شَرَاذِمُ من جيشِ الدولةِ العثمانيةِ ، مختلفةُ الميولِ ، متفاوتةُ الأهواء ، اللهم إن الحَمْلَ ثقيلٌ والعِبْءَ عظيمٌ فارزقنى فى كل ضيقٍ فَرَجاً ، وفى كل عُسْرٍ يُسْراً ، لا بدَّ من الدهاء حتى أخرجَ من هذه المآزقِ .

أما الدولةُ ورجالاتُها فإنى باسطٌ كفِىَّ لهم بالعطاء ، ومُعادٍ من يُعادون ، ومُصالحٌ من يُصالحون ، حتى أنالَ رِضاهم ومعونَتَهم .

وأما الجنودُ فإني مُسَلِّطٌ الْمُوالِينَ منهم عَلَى المُعَادِين ، ومُعِينٌ المُطِيعِين عَلَى العُصاةِ ، حتى أُطَهِّرَ البِلادَ من الفِتَنِ ، وأُرِيحَ العِبادَ من عذابٍ مُقِيم .

وأما المماليكُ فخيرٌ لي أن أُوَالِيَهُمْ ، وأُظْهِرَ لهم وُدّى ، ولا أَقِفَ في وجهِ أطماعِهم ، وقد أستشيرُهم في بعضِ الشئونِ حتى يَطمئنوا إليَّ ، ولا يأخذوا حَذَرَهم منى ، ولا يُمعِنُوا في طلب المُلْكِ ، راضياً كلٌ مملوكٍ منهم بسيادته عَلَى إقليمه ، وجَبَرُوتِهِ عَلَى خَدَمِهِ وحَشَمِه من المصريين ، ثم لأُدَبِّرَنَّ لهم مَكيدةً تأكلُ لحومَهم ، وتَبْرِى عِظامَهم ، وتكونُ جَزاءً وِفَاقاً لما اقترفوا في مصرَ من الذنوبِ ، وما اتّصفوا به من جَهلٍ فاضِحٍ ، وكِبْرٍ مرذولٍ .

هُنالك يتسنَّى لي بَذْرُ بُذورِ الإصلاحِ في مصرَ ، وهنالك آمُلُ أن تَخْضَرَّ هذه البذورُ وتَنْمِي نَمَاءً عظيماً ، وتؤتِي أُكُلَهَا كلَّ حينٍ بإذنِ ربها ، إنه نِعْمَ المولَى ونِعمَ النصيرُ .

(١٢)
عاقبةُ ظُلمِ المماليكِ

قضى اللهُ ولا رادَّ لما قضاه، أن تحكمَ مصرَ طائفةُ المماليكِ العاتيةِ، التى جلب آباءها سلاطينُ الدولةِ الأيوبيةِ، نحواً من ثلاثةِ قرونٍ، وأن يَعيشَ بين ظهرانَىْ أهلِها رؤساءُ تلك الطائفةِ، منتشرين فى الآفاقِ مستأثرين بخيراتِ البلادِ، مستبدين بالأمر فى السكان أيامَ حُكْمِ العثمانيين، فلما قبضَ المُصْلِحُ الكبيرُ محمدُ علىّ باشا عَلَى زمامِ الأمرِ فى مصرَ، واتجهت نيتهُ إلى الإصلاحِ، لم يكن ما يقفُ فى وجه إصلاحِه إلا هؤلاءِ الطَّغامَ، الذين هم أعداءُ النظامِ والعلمِ والمدنيّةِ، الذين أَلِفُوا الجهلَ وأَلِفَهُم واستحبوا العَمَى على الهُدَى، وظنُّوا المصريين عبيداً لهم، يُسَخِّرُونهم فى حَرْثِ الأرضِ وزرعِها لإشباعِ مطامعِهم وسدّ مآربهم، فكان كلما رأى أن يحاربَ جهلاً أو يُنَظِّمَ جيشاً مثلاً، رأَوْا فى ذلك خَطَراً عَلَى أنفسهم وسلطانهم، وإذا فكّر فى إحلالِ المساواةِ والعدْلِ بين من تُقِلُّهُم أرضُ مصرَ وتُظِلُّهم سماؤها، خافوا أن يَتَقَلَّصَ ظِلُّهم وطُغيانُهم، فخلا بنفسِهِ وَوَزَنَ الأمرَ بميزانِ الحكمةِ

والعقل ، فبدا له أن يُريحَ القُطرَ من تلك الطائفةِ الفاجرةِ ، دون أن يُعرِّضَ البلادَ لفزَعِ الحربِ وهلَعِ القتالِ .

وكانت قد قامت فى بلادِ العربِ فتنةُ الوهَّابيين الذين شقُّوا عصا طاعةِ الدولةِ العثمانيةِ ، وهى فى شُغْلٍ عنهم بمحاربة أعدائها الاورُبّيين ، فأنابت عنها محمدَ عليّ باشا فى تأديبِ هؤلاء العصاةِ ، وإخضاعِهم لسلطانها ، فأذعنَ للأمرِ ، وجيَّشَ جيشاً عرَمْرَماً جعلَ إمْرَتَهُ لابنه طوسونَ ، فلما حانَ موْعِدُ سفرِ هذا الجيشِ ، دعا محمدُ عليّ باشا سادةَ البلادِ (وسادتُها المماليكُ) ، لشهودِ الاحتفالِ بتسييرِ هذا الجيشِ المُظفَّرِ ، فأخذوا زينتَهم وجاءوا على بَكْرَةِ أبيهم ، وانتظمَ جَمْعُهم فى القلعةِ ، ثم ساروا فى موْكِبٍ مَهيبٍ نحوَ المُعسْكرِ ، حتى إذا انتظموا فى سيرهم ، وجرَى القضاءُ لغايته ، أُوصِدَتِ الأبوابُ من خلفِهم ومن أمامِهم ، وصدرتْ إشارةٌ خفيةٌ إلى جنودٍ أُعِدُّوا لذلك ، أنْ أعمِلُوا سيوفَكم فى رقابِ هذه الطائفةِ الباغيةِ ، وأثخِنُوا فيهم ضرْباً وتقتيلاً .

وما هو إلا أن مرَقَتِ السِّهامُ ، ولمعت الأسِنَّةُ ، وبرَقَتِ الأبصارُ ، وتطايرتِ الرءوسُ وكأن القومَ ما كانوا .

ثم مضى جيشُ طوسونَ لشأنه ، فأخضع الثائرين فى الحجازِ ، وجعلَ كلمةَ الدولةِ هناك العُليا ، وكلمةَ الوهابيين السُّفلى .

(١٣)
المصريون يشكرون لمحمد على باشا

ما كاد ينتشرُ فى نواحى الديارِ خبرُ المكيدةِ التى دبَّرها البطلُ العظيمُ لإبادة المماليكِ ، حتى طفحتْ وجوهُ المصريين بالبِشْرِ ، وراحوا يهنئُ بعضُهم بعضاً ، وأقيمت فى البلادِ معالمُ الأفراحِ ، وسجَدَ الناسُ شكراً لله عَلَى نعمةِ انقضاء الظلم وانقراضِ عهدِ الظالمين ، وتألفتْ الوفودُ من كل إقليمٍ ، وشخصتْ إلى القاهرةِ ، لتُعْلِنَ فَرَحَ البلادِ بأسرها ، وتَشْكُرَ لهذا الوالدِ الرحيمِ حُسْنَ بلائه وعظيمَ عنايتِهِ بهذا الشعبِ الضعيفِ ، وكأنِّى بهم وقد مَثَلَ بين يديه عميدُهم ، يقولُ له « أيها القائدُ العظيمُ ، جئناك نائبين عن أبناء هــذه الأمةِ ، رجالِها ونسائِها ، شِيبِها وشَبابِها ، فِتْيانِها وفتياتِها ، فى إظهارِ الفرحِ والسرور وإعلانِ الحمدِ والثناء ، عَلَى ما أوْلَيْتَنَا وتُولِينا من نِعَمٍ متواليةٍ ، ومِنَنٍ متواصلةٍ ، فقد أصبحنا آمنين عَلَى أرواحِنا وأموالنا ، بعد أن فَقَدْنا هذا الأمْنَ حيناً من الدهرِ طويلاً ، وصرنا نشعرُ بأن لنا إرادةً بعد أن كنا نُساقُ سَوْقَ

الأنعامِ، وها نحن أولاء نستَقْبِلُ عهداً جديداً عَلَى يديك، نرجو أن تستعيدَ فيه بلادُنا مجدَها الغابرَ، وعِزَّها القديمَ، وأنت إذا كنتَ قد قتلتَ هذه الفئةَ الباغيةَ لِتُنَجِّيَ المصريين من ظُلْمِها، وليتَّسِعَ أمامكَ سبيلُ الإصلاحِ، فذلك ما ترجوه بلادُنا منذُ أمدٍ بعيدٍ، عَلَى أنك قتلتَ جماعةً قليلةً لتُحْيِيَ أجيالاً عديدةً قد يكون لها في جوفِ المستقبلِ شأنٌ عظيمٌ» وكأني به يستقبلُ هؤلاء المهنئين بابتسامةٍ عَذْبَةٍ، ويقولُ لهم «ها هي ذي بلادُكم كاد يَخْفِقُ عليها عَلَمُ السلامِ، بعد أن كانت مَسْرَحاً للحروب والفِتَنِ الداخليةِ والنَّهْبِ والسَّلْبِ دهراً طويلاً، وإني أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى الذي وَفَّقَني لانتشالِها من وَهْدَتِها، أن يُوَفِّقَني للسيرِ بها في سبيلِ الرقيِّ، حتى تصلَ إلى ما أحبُّ وتحبون من سعادةٍ دائمةٍ وعِزٍّ مقيمٍ.

(١٤)
الشُورَى والإصلاح

الشُورَى مبدأ من مبادىء ديننا الحنيفِ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلمَ ، باستشارةِ أهلِ الرأيِ وذوى الخِبْرَةِ من وجوهِ المسلمين وساداتِهم ، وذلك قَوْلُه « وشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ » وقوله « وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » وهاهى ذى دُوَلُ الغربِ رأتْ بعد طولِ التجربةِ والاختبارِ، أن خيرَ أنواعِ الحُكمِ ، ما كان الأمرُ فيه شُورَى بين أُولِي الآراءِ الحازمةِ ، والعقولِ السليمةِ .

وإنَّ أولَ يومٍ بزغتْ فيه شمسُ الشُورَى فى الديارِ المصريةِ ، لَهُوَ اليومُ الذى اختار فيه محمدُ علِيّ باشا نوّابًا من أبناء مصرَ ، كالشيخِ الشرْقاوِيّ والسيدِ عمرَ مكرم ، ومَنْ لفَّ لَفَّهُمَا ، يستضىء فى الأمورِ بآرائهم ، ويهتدِى بهَدْيِهِم ، فقد ألَّفَ جماعةَ الشُورَى من علماءِ الأزهرِ الشريفِ الذين هم أمناءُ على مرافقِ الأمةِ، وقدراءُ عَلَى نفعِها بآرائهم السديدة ، وبَسَطَ أمامَ أنظارهم وجوهَ الإصلاحِ التى لا تقومُ لبلادهم بدونها قائمةٌ ، وأراهم أن مصباحَ العلمِ فيها

خابٍ، وأن التجارةَ كاسدةٌ، والزراعةَ مهملةٌ، والصناعة متأخرةٌ، وأن القومَ قد ألِفُوا الفوْضَى والهمجية فى جميع شئونِ حياتِهم، وأن ثغورَ بلادِهم مفتَّحَةُ الأبوابِ لكلّ غاصبٍ، وأنها على الجملةِ تركَةٌ مُثْقَلةٌ بالديون الفادحةِ، وأن إصلاحَ كلِّ ذلك، يتطلبُ مالاً كثيراً، وجَهداً عظيما، ويستلزمُ أَخْذَ الأمةِ بالشدةِ، حتى تَخلعَ ثيابَ الذلّ والكسلِ، والجبنِ والجهلِ، وتلبَسَ من الحرية والنشاط والشجاعة والعلم ثوباً قشيباً، ثم سألهم أن يكونوا له عَوْناً عَلَى اجتيازِ تلك العقباتِ، وأن يَمنحوا بلادَهم جُزْءاً من وقتهم، يبحثون فيه عن أَمْثَلِ الطرقِ، وأسهلِ السبلِ، لترقيتها والبلوغِ بها إلى درجة الكمال، فامتثلوا أمْرَه، وكانوا كلما بدتْ منه قسوةٌ على المصريين عند تشبثهم بالقديم، ونفورِهم من الأنظمةِ الحديثة، يُبَصِّرُونَهم بما فى النظام الجديدِ من خيرٍ يعودُ عليهم، وعلى ذريتهم وبهذا اعْتُبِرَ غارساً لشجرةِ الحُكْمِ النيابِيّ فى مصرَ التى تَسَلَّمَها حَفِيدُه إسماعيلُ باشا، ثم جلالةُ مَوْلانا أحمدُ فؤاد الأول، فتعهدها حتى جرى ماءُ الحياةِ فى أَغْصانِها، واخضوْضَرَ الورقُ فى أفنانِها، وتدلَّتْ ثِمارُها، وها نحن أولاءِ نَجْنِي جَنَاها الدائِمَ، ونَقْطِفُ قُطُوفَهَا الدانيةَ.

(١٥)

الزراعـة (١)

وادى النيلِ من أَخصبِ بِقَاعِ الأرضِ وأصلَحِها لإنباتِ كثيرٍ من النباتاتِ، وجوُّهُ ملائمٌ لتنميةِ خيرِ الأشجارِ، ونهرُه عَذبٌ فيَّاضٌ، وأهلُه يتوارثون صناعةَ فَلْحِ الأرضِ وزَرْعِها كابراً عن كابرٍ، ومن شاءَ أن ينهضَ بمصرَ إلى سماءِ المجدِ، ويسيرَ بها فى طريقِ الفلاحِ، ويملأَ خزائنَها ذهباً وَهَّاجاً، فَلْيَجْعَلَنَّ نُصْبَ عينه إصلاحَ زرعِها واستثمارَ أرضِها، وهو بعد ذلك وَاصِلٌ بها إلى أسْمَى غاياتِ الرقىِّ والنجاحِ.

تجلَّتْ هذه الحقائقُ لبطلِنا الكبيرِ محمدِ علىٍّ باشا، عندَ ما أخذَ عَلَى عاتِقِه تحريرَ مِصرَ من رقِّ العبوديةِ، ونَشْرَ مبادِئِ المدنيةِ الحديثةِ فى ربوعِها، وعَرَفَ أن قِوامَ الإصلاحِ المالُ، وأن كنوزَ مالِ هـذه البلادِ فى خِصْبِ أرضِها، وان تُرابَها التِّبْرُ الخالصُ، ونهرَها الذهبُ المُذَابُ، فاتجهتْ نيتُه لهذا الإصلاحِ لِيُعِدَّ المالَ ويَبْنِىَ إصلاحَه عَلَى أساسٍ متينٍ، وليس خافياً أن تَرْقِيَةَ

الزراعةِ تستلزمُ تنظيمَ طُرُقِ الرّيّ والصرفِ ، والعنايةَ بتربيةِ الماشيةِ ، وجَلْبَ أَحْسَنِ أنواعِها ، وانتقاءِ البذورِ ، وتشجيعَ الزُّرَّاعِ وإرشادَهم إلى خيرِ الوسائلِ لإنماءِ النباتِ ، وإنشاءِ الآلاتِ الزراعيةِ ، وإصلاحَ طُرُقِ النقلِ والاتّجارَ فيما زادَ عن حاجةِ البلادِ مما تجودُ به الأرضُ .

فَكَّرَ هذا المصلحُ فى كل ذلك ، وأعدَّ لكل شىء عُدَّتَهُ ، وقام بكل ما يدعو إلى نُمُوّ الزراعةِ ، واتساعِ حقولِها ، فاهتزّتِ الأرضُ وربَتْ وأنبتتْ من كلِّ زَوْجٍ بهيج ، ولا يَظُنَّنَّ أَحَدٌ أن ذلك كان دون أن يَلْقَى المصريون من الهولِ والشدةِ ، ما تقشعِرُّ منه الأبدانُ ، وتتفتتُ له الأكبادُ ، فقد أَلِفُوا الكسلَ ورَضُوا بالقليلِ ، واستعذبوا الراحةَ فى ظِلِّ الفقرِ والخمولِ ، فما أجدَرَهم أن يساقوا إلى مناهلِ الخيرِ بالسِّياطِ ، وأن يُرْغَمُوا عَلَى ولوجِ أبوابِ السعادةِ إرْغاماً .

(١٦)
الزراعـة (٢)

لم تَلقَ الزراعـةُ في مصرَ من خلفاء محمدِ عليّ باشا عنايةً تسيرُ بها في الطريقِ التي مهّدَها لها، بل لقد أُهمِلَ شأنُها حتى عاد الزُّرّاعُ إلى حالتهم الأولى من الكسلِ والإهمالِ، وتُرِكَتِ الجداولُ التي أنشأها محمدُ عليّ باشا يتراكمُ فيها الطينُ طبقاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، حتى ارتفقتْ قيعانُها ولم تَعُدْ صالحةً لإرواءِ الأرضِ كما كانت، ولا شكَّ أن الزَّرعَ لا يَنمِي ولا يترعرعُ، إلا إذا سَهُلت طرقُ الريّ والصرفِ، لذلك كان طبيعياً أن تنحطَّ الزراعةُ في مصرَ التي لم يُعْنَ أهلُها بحرثِ الأرضِ وزَرْعِها إلا بعد أن أُكْرِهُوا عَلَى ذلك إكراهاً.

ولو لا أَنْ تَدَارَكَ اللهُ جلتْ قدرتهُ هذه الأُمَةَ بلطفهِ، وبعث فيها رسولَ الإصلاحِ، ونصيرَ المدنيةِ والحضارةِ، المغفورَ له إسماعيلَ باشا، لجَفَّ ماءُ حياتِها، ونَضَبَ مَعينُ ثرائِها.

جاء مِصرَ ولم تَنْضَجْ عقولُ أهلِها فيعرفوا ما يَضُرُّهم وما ينفعهُم، وعرف أن منبعَ ثروتِهم في زراعتِهم، وأنه من العَبَثِ

أن يُحاولَ تمْدِينَ مصرَ وتحضيرَها ، قبل أن يُعْنَى بالزراعةِ عنايةً تجعلُ ثمراتِها كافيةً لإنشاء مَرافقِ الحياةِ فى مصرَ ، فبدأ بطرقِ الإرواء فنظَّمها ، ثم أخذ يُصْلِحُ مَوَاتَ الأرضِ ، ويَسوقُ المصريين إلى زرْعِها سَوْقاً ، وما هو إلا أن بدت مصرُ جَنَّةً تجرى من تحتها الأنهارُ ، وأخذ المصرىُّ يجْنِى ثِمارَ تَعَبه ، فأقبلَ عَلَى العمل من تلقاء نفسِه ، وعرف أن مَنْ بَذَرَ حَصَدَ ، ومَنْ جَدَّ وَجَدَ .

هكذا تَرَكَ إسماعيلُ باشا مصرَ والزراعةُ قِوَامُ حياتِها ، وعِمادُ ثَرْوَتِها ، وهكذا سارت الزراعةُ فى مصرَ سيراً طبيعيًّا ، فى طريقِ النَّماء والتدرُّجِ ، حتى أشرقت شمسُ مليكِنا الأعظمِ ، احمد فؤاد الأول ، فى سماء مصرَ ، فَجَرَى عَلَى سُنَّةِ أبيه وجَدِّه ، وعرف للزراعةِ قيمَتها ، وبحث عن عِلَلِها وأدْوائِها ، ووصف لكل داء دَواء ، وها هى ذى المدارسُ الزراعيةُ ، والمعارضُ والنَّقاباتُ والبُعوثُ والجمعياتُ ، وما إلى ذلك من وسائلِ ترقيةِ الزراعةِ ، تَنْهَضُ دليلاً عَلَى أن الزراعةَ لم تنل فى عصرٍ من العصور عنايةً ورعايةً ، كالذى نالته فى هذا العصرِ السعيدِ ، وحسبُكَ أن تجولَ فى الوادى جَوْلَةً ، فترى نماء الزرعِ ، ونشاطَ الزُّرَّاعِ ، وسِمَنَ الماشيةِ ، وتَعْرفَ لذى الجميل جميلَه .

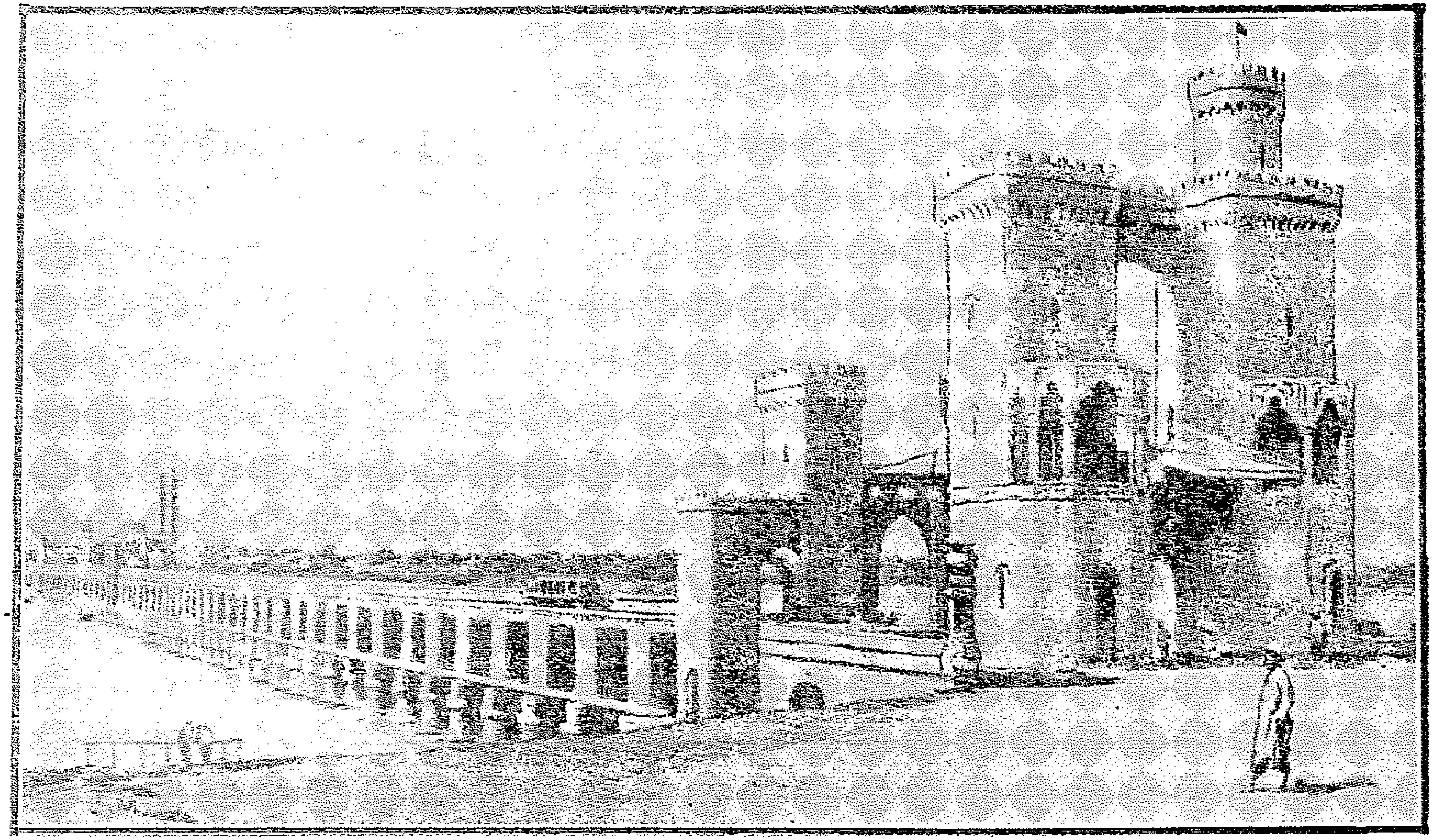

القناطر الخيرية

(١٧)

القناطر الخيرية

يستمدُّ نهرُ النيلِ ماءه العاديَّ من البحيراتِ الاستوائيةِ ، التي لا ينقطعُ تساقُطُ الأمطارِ من سمائها علَى مدارِ السنةِ ، ويجرى هذا الماء من أواسطِ أفريقيةَ ، حتى ينصبَّ فى البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ، بعد أن يتشعبَ النيلُ إلى فرعين شماليَّ مدينةِ القاهرةِ ، أحدُهما فرعُ دِمياطَ ، والآخرُ فرعُ رشيد ، وهذا الماء العاديُّ لا يرتفعُ إلى الوِديانِ والحقولِ لعُمْقِ مَجْرَى النهرِ ، فلا يتيسرُ إرواء شىء من الأرضِ ، اللهم إلا بعضَ الحقولِ المُجاورةِ لشاطِئَ النهرِ ، فإنها قد تُسْقَى بماء الآلاتِ الرافعةِ ، وفى ذلك من المتاعبِ ما لا قِبَلَ للناسِ باحتماله ، ذلك شأنُ البلادِ قبل أن يَغْمُرَها النيلُ بفيضِه السنويّ ويُجْزِلَ لها العَطَاء ، فإن الأمطارَ تَهْطِلُ علَى الجبالِ الحبشيةِ فى مَطْلَعِ صيفِ كلِّ عامٍ ، وتتدفقُ مياهُها فى روافدَ عديدةٍ ، تتّجهُ غربًا حتى تلتقيَ بالماءِ العاديّ فى النيلِ ، فيضيقُ بها صدرُه ، ويمتلئُ بها جوفُه ، فإذا فاضَ هذا

البحرُ المسجورُ فى مصرَ، ارتفعت مياهُهُ، وسالت فى جهات الوادى، وبذر الناسُ الحبَّ، ورَجَوُا الثمارَ من الرِّبْحِ، ولم يلبثْ بعدَ قليلٍ أن يَغُلَّ يدَهُ، ويعودَ سيرتَه الأولى.

يَسهلُ عَلَى المرءِ بعد ذلك، أن يستنبطَ أن هذا الوادىَ المباركَ كان لا يُزْرعُ إلا فى أيامِ الفَيَضانِ زَرْعةً واحدةً، وأنه فى زمن تناقصِ النيلِ يكون بَوْراً.

أتَدرى ياهذا مَنْ فَكَّرَ فى حبْسِ ماء النيلِ حتى لا يذهبَ سُدًى؟ أتدرى مَن أحْيَى المَوَاتَ فى مِصْرَ؟ أتدرى مَنْ جعل أرضَ مصرَ الشماليةَ تُزْرَعُ ثلاثَ مراتٍ كلَّ عامٍ؟

إنه محمدُ علىٍّ باشا الذى هالَهُ أن يَسمعَ المصرىَّ يقولُ:

أَرَى ماءً وَبِى ظَمأٌ شديدٌ ولكنْ لا سبيلَ إلى الورودِ

نال منه أن يَرَى الماءَ يجرى إلى البحرِ عَذْباً فراتاً، والبلادُ، سكانها وزَرْعُها وحَيوانها، فى حاجةٍ ماسَّةٍ إلى هذا الماءِ، شقَّ عليه أن يَدَعَ الدواءَ يُلْقَى فى الْيَمِّ، والمريضُ يستسلمُ لعوامل الموتِ، فتقدمَ إلى الصُّناعِ والمهندسين أن يُقيموا عَلَى مبدأٍ كلِّ

فرعٍ من فرعَي النيلِ قنطرةً ذاتَ عُيُونٍ وأبوابٍ حديدية، تُفتحُ وتُغلقُ عندَ إرادةِ ذلك، حتى إذا انقضى فيضانُ النهرِ أُغْلقتِ الأبوابُ فى وجْهِ الماءِ العادىّ، فتكاثرَ خَلْفَها وملأَ مَجْرى النهرِ، وارتفع سَطْحُهُ عن سطحِ المزارعِ، فأرْواها صيفاً وشتاءً، وأحالَها جناتٍ عن يَمينٍ وشِمالٍ.

ذلك الحجرُ الأولُ فى أساسِ إنهاضِ مصرَ، وضَعَه بيده الشريفةِ رأسُ هذه الأسرةِ العلويةِ الكريمةِ

(١٨)

الجداول والقنوات (١)

لا أراه مُجاوِزاً كَبِدَ الحقيقةِ، ولا عَادِياً وجهَ الصوابِ، مَن يقولُ، إن هـذا الوادىَ جِسمٌ قلبُهُ النيلُ، وشرايينُهُ الجداولُ والقنواتُ التى تندفقُ فيها المياهُ، وتجولُ فى نواحِى الديارِ فتبعثُ فيها الحياةَ، ذلك قُطْرُنا المصرىُّ الذى يَعرفُ الناسُ طُرّاً أَن ثروتَه فى زراعته، وأن زِراعتَه لا تَنمِى ولا تَجُودُ، إلا إذا انتظمت سُبُلُ إروائه وامتدت فى أرجائه الجداولُ، وتشعبت فى نواحيه القنواتُ، ويَسَّرَتْ وصولَ الماءِ إلى المزارعِ البعيدةِ عن مَجْرَى النيل.

تسلَّمَه البطلُ الكبيرُ محمدُ علىٍّ باشا، وليست تَعلُو سطحَ أرضِهِ المياهُ إلا زمنَ الفيضانِ، وليستْ تنبعثُ من النيلِ فى ناحيةٍ من نواحيه قناةٌ، فعزَّ عليه أن يَرى أرضَ الوادِى الخصيبِ بَلْقَعاً، وهى صالحـةٌ لإنباتِ أطيبِ الثمراتِ، فأمَرَ أن تُنْشَأَ فى مصرَ السُّفلَى جداولُ تستمدُّ مياهَهَا من النيلِ خلفَ القناطرِ الخيرية، ثم تجتازُ الأقاليمَ عن يمينِ النهرِ وشِمالِه، حتى تنتهىَ إلى شواطئِ

البحيراتِ الشماليةِ ، بعد أن تكون قد حملت إلى جسمِ البلادِ ماءَ الحيـاة .

أتعلمُ يا هذا كيف كان وَقعُ ذلك الأمرِ فى نفوس آبائك المصريين ؟. إنهم لفرط جهلهم، ولما جُبلوا عليه من الكسل أنكروا ذلك ، وظنوه عملاً شاقًّا ، يُرادُ تسخيرُهم فيه لسدِّ مطامعِ الحكامِ ، كما تعودوا ذلك فى عهد المماليك والعثمانيين ، فمنهم من اعتصم مختبئاً فى داره ، ومنهم من فرَّ هارباً إلى بلاد سورية ، ومنهم من عَصَى الأمرَ وتأهَّبَ للدِّفاعِ ، ولكن أمْرَ مَنْ يَعصون ؟ . ومن وجهِ مَنْ يفرُّون ؟ . وقد تعقَّبهم جنودُه ، وقَفَا آثارَهم عسَسُه، واستاقوهم إلى العملِ مُكْرَهين ، وأرغموهم على أن يؤسسوا لأبنائهم وذرِّياتِهم ، بناءً شامخًا من المجدِ والسعادة ، وها هى ذى قسوةُ محمدِ علىٍّ باشا قد زالت ، وثِمارُ إنشاءِ الجداولِ لا تزولُ ، فالزرعُ مُخْضَرٌّ ، والحدائقُ يانعةٌ ، والرَّخاءُ عامٌّ ، والتجارةُ نافقةٌ ، وسكانُ المدنِ والقرَى يُسَبِّحون بحمدِ هذا المصلحِ العظيم .

---

(١٩)

الجداول والقنوات (٢)

رأى إسماعيلُ الزراعةَ فى مصر ذابلةً ، والجـداولَ جافّةً ، والأرضَ قاحلةً ، والأهلين كُسالَى ، والفقرَ مُدْقِعًا ، فهمَّ وهو صاحبُ الهمةِ الشمَّاء ، بإحياء أرضِ مِصْرَ وإجراء المياهِ فى جميع أصقاعها ، ليستدرَّ بذلك خيراتِها ، ويستغلَّ منابتَها ، فبدأ بجداولِ جَدِّه فعمَّقَها ، وأصلَحَ جُسورَها ، وأعادها سيرتَها الأولى ، ثم حمل الناسَ فى كل ناحيةٍ من نواحى القُطرِ على حَفْرِ الجداولِ ، وإنشاء القنوات والمصارفِ والقناطرِ ، وأكرهَهُم على ذلك إكراهًا ، وما هو إلا أن تشعبت القنواتُ فى جسمِ البلادِ ، وجرى فيها الماءُ ، وأخصبَ من الأرضِ ما كان مُجْدِبًا ، وزُرِعَ منها ما كان بَوْرًا ، وعَمِرَ ما كان خرابًا . واستُثْمِرَتِ الحقولُ الواسعةُ ، والضِّياعُ الكبيرةُ ، وأنشئت الحدائقُ النَّضِرَةُ ، وغُرِستِ الأشجارُ العظيمةُ ، واخضرَّتِ المزارعُ ، وأَخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنت ، ولَبِسَتْ البلادُ من الُخضرةِ حُلَّةً سندسيةً ، ونَشَرَ الملاحون قِلاَعَ سفائنِهم

فى تلك الجداولِ ، واستراحَ الزراعُ ، وغرّدَ الطيرُ ، وغنّى الذُّباب ورعَتِ السائمةُ .

ولو علمتَ ياهذا أنه أنشأ نَيفًا ومائتىْ جدولٍ ، وأكثرَ من خمسمائةِ قنطرةٍ ، لعرفتَ مبلغَ اهتمامهِ بترقيةِ مواردِ الثروةِ فى مصرَ ، ولو رأيْتَ القسوةَ التى أَخَذَ بها المصريين إبّانَ إنشاءِ تلك القنواتِ ، والتى لا تزالُ أحاديثَ أكثرِ العامّةِ من المصريين فى سَمَرِهِم ، لعرفت أنه سَخَّرَ آباءنا فى جَمْعِ ثروةٍ عظيمةٍ لنا دون أن يَشعروا ، ولحمدتَ له هذا السعْىَ المشكورَ ، وأذعنتَ بأنَّ ما نحن فيه من رَخاءٍ وغِنًى أثرٌ من آثارِ هذا المصلحِ الكبيرِ .

بقِىَ عليك أن تعرفَ أن هذه الجداولَ والمجارىَ إذا أُهملتْ تراكم فيها الطينُ وتعذّرَ سيرُ الماءِ فيها ، وأنها كانت موضعَ عنايةِ خلفاءِ إسماعيلَ باشا ، حتى جاءَ العصرُ الزاهرُ ، عصرُ مليكِنا الأمجدِ أحمد فؤاد الأول ، فانتظم سيرُ الدَّوْرَةِ المائيةِ فى جسم الوادى ونمت الزراعةُ نماءً قلَّ أن يُدانيَهُ نماءٌ ، وامتلأت خزائنُ المصريين ذهبًا بفضل عنايته بالجداول والمواردِ المائيةِ ، وتعهدِه لها وتعيينِ

حُرّاسٍ لجسورِها، وحسّابٍ لقياسِ ارتفاعِها وانخفاضِها، ومهندسين لحفرها وتعميقها، وبناء القناطرِ عليها وفتحِ الترعِ فى ضِفافِها، وزَرْعِ الأشجارِ على شواطئها، وإنشاء الطرقِ الزراعيةِ بحذائها، وتوزيعِ مياهِها على الأرضين توزيعاً عادلاً، اللهم إن المصريين مَدِينون بكل ما هم فيه من علمٍ ورَخاءٍ وحريةٍ، لهذه الأسرةِ المباركةِ، فاجْزِ اللهم صاحبَ الإحسانِ إحساناً .

(٢٠)

الحيوان

كانت مصرُ ولا تزالُ تعتمدُ على ماشيتها فى حَرْثِ الأرضِ وسَقْيِها ، ودرسِ الغلالِ وطحْنِها ، وحملِ الأثقالِ وجَرِّ العجلاتِ ، فهى لذلك تُعْنَى بها منذُ القِدَمِ ، عنايةً عظيمةً ومن عَرف أن المصريين الأقدمين اتخذوها معبوداتٍ ، وقدموا لها القرابين ، ولَبِسُوا الحِدَادَ لموت العجلِ «أبيس» وفَرِحوا وتَزَيَّنُوا عند العثورِ عَلَى عجلٍ آخرَ يعبدونه ، يُدْرِكْ كيف كان القومُ يعتقدون فى نفعِ هذِه الماشيةِ ، وأن عليها مَدَارَ معيشتهم ، وعِمَادَ حياتهم فهى طَعامُهم إذا جاعوا ، ومَطاياهم إذا أَزْمَعوا السَّفَرَ ، وعليها يحملون أثقالَهم إلى بلدٍ لم يكونوا بالِغيهِ إلا بِشِقِّ الأنفسِ ، ومن أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها أثاثٌ لهم ومتاعٌ .

ذلك شأنُ الماشيةِ المصريةِ فى عصورها الأولى ، ثم عَدَا عليها ما عدا على جميع مرافقِ الحياةِ المصريةِ فى القرونِ الوُسْطَى ، فضَعُفَ شأنُها ، وقلَّ عددُها ، وأجدبتْ مراعيها ، وَقَلَّتْ حاجةُ

الناسِ إليها، بعد أن أهملوا زراعة الأرضِ، والارتحالَ بالمتاجرِ، حتى إذا بدا لمحمدِ على باشا أن يهتمَّ بالزراعةِ المصريةِ، رأى أن قِوَام ذلك الأَنْعَامُ، فجلبَ منها ما لا غِنَى للزراعِ عنه، كالثيرانِ والأبقار فكانت خيرَ مِعوانٍ لهم.

ولما رأى بعد انتظامِ وسائلِ الرى، أن المراعِىَ قد اخضرَّ فيها العشبُ والكلأُ، وأن البلادَ فى حاجةٍ إلى الثيابِ الصُّوفيةِ، أَنفذَ فى بلادِ العربِ وسُوريَّةَ وغيرهما مَن يشترون الأغنامَ، فعادوا بِقُطْعانٍ كبيرةٍ منها، انتشرت فى مَنابت العُشْبِ، ومَساقِطِ الأمطارِ يَحميها الرُّعاةُ والحُرَّاسُ، ثم جُزَّتْ أصوافُها وغُزِلت، وأُنشئت المناسجُ فنُسِجت الثيابُ الصوفيةُ فى المصانعِ المصريةِ، ولَبِسَها المصريون، وها نحن أولاء نرى تلك المصانعَ لا تزالُ باقيةً، ونرى فريقاً عظيماً من الأمةِ المصريةِ يتخذُ من تلك المناسِجِ أثوابًا قشيبةً، إذا لَبِسَها أحدُهم سأل الله لمن شادَ مصرَ الرَّحمةَ والرِّضوانَ.

ولعل فى إنشاء هذا البطلِ العظيم مدارسَ للطبِّ البيطريِّ دليلاً ساطعاً على أن الماشيةَ كانت محلَّ عنايتهِ، وموضِعَ رعايته.

(٢١)
الأشجـار

ليستْ بلادُنا مَنْبِتَ غاباتٍ، ولا منبعَ أَجَمَاتٍ، مَضتْ فى هذا السبيلِ منذُ خُلِقتْ، تعتمدُ فى تحصيلِ الآلاتِ الخشبيةِ، وخَشَبِ العمارةِ عَلَى جاراتِها من الأممِ الأوربيةِ والآسيويّةِ، ولعلك ترى تُجّارَ الخشبِ عندنا لا يزالون يَجلِبونه من مصادرِهِ الأولى فى أَوْرُبّةَ الشماليـةِ، وإنَّ ما يُرَى فى حدائِقِنا، وعلى جوانبِ الطرقِ الزراعيةِ فى أقاليمِنا، وعلى حِفَافَى النيلِ، وشواطىءِ الجداولِ فى ديارِنا، وعلى أرصفةِ الشوارعِ والميادينِ فى أُمّهاتِ مُدُنِنا، من أشجارٍ باسقةٍ وخمائلَ مُلْتفّةٍ، ليس إلا حسنةً من حسناتِ جَدِّ هذه الأسرةِ المباركةِ العلويةِ، وأَصْلِ هذه الشجرةِ الطيبةِ الزكيةِ، محمدِ عليّ باشا.

تناول إصلاحهُ فيما تناولَ الأشجارَ واستنباتَها فى هذا القطرِ، فقد عزّ عليه أن تحتاجَ هذه الأمةُ إلى غيرها فى جلبِ الخُشُبِ، وهى مادةٌ أوليةٌ من موادّ الحياةِ لا غِنَى لكائنٍ مَنْ كان عنها،

فأمر أن يُؤْتَى ببذورِ الأشجارِ وفسائِلِها حيثما وُجدتْ وأن تُزرَع في الأماكنِ التي يُرْجَى لها فيها النماء ، وأن يُوَكَّلَ بسَقْيِها وتَشْذِيبِها وحِراستِها ذوو الخِبْرَةِ وأولو العلمِ بالنباتِ وتَعَهُّدِه .

نجمتْ الشجيراتُ وترعرعتْ ، وترنحتْ أفنانُها ، وتعانقتْ أغصانُها ، وكادت البلادُ تجْنِى جَنَاها، وتُعَوِّلُ في وَقُودِها وخَشَبِها عَلَى ما جادتْ به غاباتُها، لولا أنَّ مَلاكَ الموتِ طافَ بغارسِ الأشجارِ، ومُحْيِي الدِّيار ، وحامِي الذِّمارِ ، فذَبَلَتْ أغصانُها ، وتساقطتْ أوراقُها، وتحوَّلَ كثيرٌ منها إلى هشيمٍ تذروه الرياح ، ولا نَدْرِي أذُبولُ ما ذَبَلَ منها كان حُزْناً عَلَى غارسِها ، أمْ أنَّ القائمين عَلَى أمرِها سئِمُوا العملَ وأَمِنُوا العقابَ فأهملوها وجعلوا بينها و بين الماءِ سدّاً منيعاً ؟ . عَلَى أن يدَ الذُّبولِ لم تكنْ لِتأْتِىَ عَلَى كل ما غَرَسَ ، بل ظلَّ نامياً ما كان قريباً من المجارى المائيةِ العَذْبَةِ ، حتى صار دَوْحاً عظيماً ، وها نحن أولاء نتخذُ من الأشجارِ آلاتِنا الزراعيةَ ، وَوَقُودَنا ، ونَسْقُفُ كثيراً من بيوتِنا بأعوادِها ، وَنَتَفَيَّأُ ظِلالَها ، ونُشارِكُ طيورَها المغرِّدَةَ ، وذُبابَها المغنِّي ، في استنزالِ الرَّحَماتِ ، عَلَى جَدَثِ المصلِحِ الكبيرِ ، والبطلِ العظيمِ محمدِ عليٍّ باشا .

(٢٢)

القطن

مَنبعُ الثَّروةِ، وكنزُ الغِنَى، ومصدَرُ الخيراتِ، ومَنهلُ البركاتِ، وأصلُ السعادةِ والرخاء، هو الركنُ الركينُ الذى تعتمد عليه الأمةُ

جنى القطن

المصريةُ الآنَ فى بناءِ أساسِ استقلالِها الاقتصادىّ والمالىّ، وهو السُّلَّمُ الذى تَصعدُ فيه إلى ذِرْوَةِ المجدِ والسُّؤْدُدِ، وهو القوةُ الكهربائيةُ التى تَجذِبُ الشعوبَ إلينا، فتخطبُ وُدَّنا، وتتملقنا،

هو تلك الخيوطُ البيضاءُ الناصعةُ التى يُنسجُ منها لباسُنا ، ولباسُ الناسِ أجمعين .

هل ذَكَرَ الزارعُ المصرىُّ وهو يجنى ثِمارَ هـذه الشجرةِ الطيبةِ ، ويبيعُها بقناطيرَ مقنطرةٍ من الذهبِ والفضةِ ، مَنْ أَسْدَى إليه هذا الجميلَ وكيف أسْداه ؟ . هل عرف الناسُ كافةً فَضْلَ من ألبسهم من القطنِ لباساً ضافِىَ الذيولِ ؟ . هل سأَلَ الأطباءُ والجرَاحِيُّونَ جَرْحَاهم وهم يَضْمِدُون لهم جِرَاحهم بالقطنِ ، أن يَرفعوا أَكُفَّ الضراعةِ إلى اللهِ أن يَرْحَمَ من صَنَعَ للإنسانيةِ هذا الجميلَ ؟ . هل دار بخَلَدِ مَن ينقلبُ عَلَى الحَشَايَا القطنيةِ الليّنةِ أن يَزورَ كلَّ حينٍ قبرَ مَن غرسَ تلك الشجرةَ الطيبةَ فى مصرَ ؟ . أتعرفُ يا هذا لمن كلُّ هذا الفضلِ العظيمِ ؟ . إنه لنصيرِ مصرَ ، وباعِثِها من رَمْسِها ، الحاجّ محمدِ علىٍّ باشا .

عَلِمَ أن بلادَ الهند تَزرعُ نوعاً من النباتِ يقالُ له القطنُ ، فجلبَ بذورَه فيما جَلَبَ ، وجَرَّبَ زراعتَه فى إحـدى حدائقِ القاهرةِ ، فنَمَى وجاء بثمرٍ عظيمٍ ، فتقدمَ إلى بعضِ المصريين أن يَزرعوه فى حقولِهم ، تحتَ إرشادِ أولى العلمِ بزراعتِه ، وتهدَّدَ

العاصين منهم بالعقابِ الصّارمِ، فزرعوه عَلَى الرغمِ منهم، وجَنَوْهُ غيرَ حافلينَ بما لَهُ من مَزَايَا وفوائدَ؛ ثم غَزَلَه الغَازِلُون ونسجَهُ الناسجون، وَسرْعَانَ ما انتشرتْ زراعتُه فى مصرَ السفلَى وأُنشئت له المحالجُ والمناسجُ، وهاأنت ذا ترى مَن شاء من الزُّراعِ أن يملأْ خزائِنَه مالاً، لا يعتمدُ إلا عَلَى القطنِ، ومَن أراد من التجارِ أن يَربَحَ أرباحاً طائلةً لا يتَّجِرُ إلا فى القطن، ومَن رَامَ من أربابِ الصناعةِ أن يحتكمَ فى العالَمِ، لا يشتغلُ بغيرِ صناعةِ نسْجِ القطنِ.

إذا كنتَ قد عرفتَ للقطن قيمتَهُ وخَطَرَهُ، وعرفتَ مَن زرعه ونَشَرهُ، أفلا تتقدمُ فى خشوعٍ وخضوعٍ، بين يَدَىْ قبرِ هذا المحسنِ الكبيرِ، وتسألَ اللهَ أن يجعلَ الجنـةَ مثواه، وأن يحفظَ لنا حياةَ حفيدِهِ الأكرمِ، الذى نسج عَلَى مِنْوالِهِ فى العنايةِ بشأنِ القطنِ وزارعيـه، صاحبِ الجلالةِ مليكِنا المُفـدَّى احمد فؤاد الأول، إنْ فعلتَ ولا أظنكَ إلا فاعلاً، فقد قابلتَ الإحسانَ بالشُّـكرانِ، ولَئِنْ لَمْ تفعلْ فأنتَ من العاقين.

(٢٣)
أشجار الفاكهة

جُلْ بطرْفِك بين أعطاف هذا الوادى العظيم ، ومتِّع النظرَ برؤية حقوله الخضراء ، وحدائقه الغنّاء وبساتينه الفيحاء ، وسَلْ رَبَّ كلِّ حديقةٍ ، وصاحبَ كلِّ بستانٍ ، فى أىّ عهدٍ غَرَسَ تلك الأشجارَ التى دانت قطوفُها ، وتدلّت ثِمارُها ؟ ومن أين جاء ببذورها ؟ ومَن علّمَه زَرْعَها واستثمارَها ؟ ثم سله عن مقدارِ ما تَدِرُّ عليه من خيرٍ عميمٍ وربْحٍ جسيم ، سله يتحدثْ إليك فى بَساطةٍ وسكونٍ بهذا الحديثِ .

أخبرَنى أبى عن أبيه أن ذلك البستانَ يرجعُ العهدُ فى غرسِ أشجاره إلى زمن المصلحِ العظيم محمدِ علىٍّ باشا ، فإنه بعد أن حفر الجداولَ وأجرى الماء إلى المزارعِ ، لم يشأ أن يكونَ نصيبُ غيرِ الفاكهةِ من أنواعِ النّباتِ أعظمَ من نصيبها ، فجاء ببذورها من سوريةَ وممالكِ أوْرُبّةَ الجنوبيةِ ، ثم حمَلَنا عَلَى زرعِها ، وعلماء الزراعةِ يُرشدوننا من حينٍ إلى حينٍ ، إلى طُرُقِ العنايةِ بها

ووسائلِ تنميتها ، وما هو إلا قليلٌ حتى جادت شجيراتُها ، بأشهَى الثِّمارِ ، وتساقطتْ من أفنانِها فاكهةٌ جَنِيَّةٌ ، ما كِدْنا نظهرُ بها في الأسواق حتى تسابقَ الناسُ الى شرائها بعد أن عرفوا لذةَ طعمِها ، ومبلغَ نفعِها في صحةِ الأجسامِ ، وها نحن أولاء لا نزالُ نتوارثُ هذا البستانَ مولوداً عن والدٍ ، ونحتفظُ بكلِّ نوعٍ من أنواعِ فاكهتِهِ ، ونقدمُ للآكلين في الصيفِ ، التينَ والعنبَ والخوخَ والموزَ والمشمشَ والبطيخَ والشمامَ ، وفي الشتاء البرتقالَ والتفاحَ والموزَ والتمرَ وما إلى ذلك مما لذَّ وطابَ ، أما ربحُنا منه فإنه بحمد الله عظيمٌ ، ولعلك تستنبطُ من خلال حديثي هذا ، أني ومن تقدمني من آبائي غارقون في النعم التي أسبغها علينا هذا الجوادُ الكريمُ ، ولا يزالُ يُسبغُها علينا أحفادُه العظماء ، لذلك ترانا لا نفتأُ نستمطرُ لجدَثِهِ غُيُوثَ الرحمةِ ، عِرفاناً لجميله ، وإحياءً لذِكْرِه ، ونرجو لخيرِ عِتْرَتِهِ ، مليكِنا الأعظمِ أحمدَ فؤاد الأول ، عُمراً طويلاً ، وعهداً سعيداً .

فهل أنتم يا معشرَ الأغنياء ، يا مَن تبتاعون منا هذه الفواكه ، ويقدمُها إليكم نُدُلُكم وخدمُكم عَلَى موائِدِ طعامكم وشرابكم ، ذاكرون فضلَ مَن أحْسَنَ إلينا وإليكم وكان لبلادنا خيرَ الحاكمين؟

(٢٤)

الكتان والنيل (النيلة)

خيرُ الملوكِ من يُغْنِى أمتَه عن الأممِ ، ويُقللُ حاجتَها إليهن ، ويوفرُ لها أسبابَ الراحةِ ، ويُسَهِّلُ عليها تحصيلَ مرافقِ الحياةِ ، ولعل بطلَنا الكبيرَ محمدَ علىٍّ باشا كان خيرَ مَن أخذ بيد أمتِه ، وشجَّعَها عَلَى العمل حتى تستغنى عن غيرها ، فإنه نشَّط زراعةَ الكتَّانِ فى مصرَ ، وأنشأ معاملَ لنَسْجِ خيوطِه ، وأُخرى لعَصرِ بذورِه ، واستخراجِ زَيتِها ، ولستَ تُدركُ مبلغَ ما عاد عَلَى الأمة المصريةِ إذْ ذاك ، ولا يزالُ يعودُ عليها الآنَ ، من تلك الشجرةِ الطيبةِ ، إلا إذا عرفتَ فوائدَ الكتان ومزاياه ، فخيوطُه أشبهُ بخيوط الحريرِ ، ويمتازُ نَسْجُه بالمتانة العظيمةِ ، وبذورُه قلَّ أن يخلوَ منها أو من مسحوقِها أو من عصيرِها دواء .

ولما رأى هذا المصلحُ ، أن الأنسجةَ المصريةَ عَلَى اختلاف أنواعها لا يُعوِزُها إلاَّ أن تُصبغَ بالألوان المختلفةِ ، حتى يتناسبَ حُسْنُ منظرِها ورُواؤُها ، مع متانتِها ودِقةِ صُنْعِها ، وإحكامِ

نَسْجِها ، تقدمَ إلى الزُّراع أن يزرعوا النيلَ (النيلة) الذى يستعمل فى صَبْغِ الثيابِ وتلوينها ، وجاءهم ببذره وبمن يَهْدِيهم طريقةَ زرعِه واستنباتِه ، وما هو إلا أن صَدَعَ الزُّراعُ بالأمر ، وزرعوا تلك الشجرةَ طوعاً أو كَرْهاً ، فأتت بخير ما كان يُرجَى منها ، وأنشئت فى الديار المصابغُ ، وكفى اللهُ المصريين الحاجةَ إلى الأجانبِ ، وأغنى الأمةَ بما صنعت أيْدِى صُنّاعِها ، وزَرعت أيدى زُرّاعِها ، وإن كان لا يزالُ فى البلاد بقيةٌ من هذين النبتين أو مَصْنَعٌ من مصانعهما ، فإنما ذلك أثَرٌ من آثارِ رسولِ الإصلاحِ فى مصرَ ، الحاجّ محمدِ علىّ باشا الجديرِ من كل مصرىّ باستنزال شآبيبِ الرحمةِ والغُفْرانِ .

(٢٥)

الجيش

جنودُ البلادِ حُماةُ الذمارِ، وحصونُ الدولةِ، ودروعُ المملكةِ، والمدافعون عن الثغور، والذائدون عن الحِياضِ، وهم عُدَّتُها فى الشدة، وسِلاحُها عند الخطوب، وكلما كان جيشُ الأمةِ باسلاً هابَتْها الدولُ، وخَشِيَتْ بأْسَها الممالكُ.

كانت جنودُ المصريين فى عصورهم الأولى أقوى جيوشِ العالمِ، فكم دَوَّخَ بها الفراعنةُ بلاداً، وهزموا بها جيوشاً، وفتحوا حصوناً، ثم طحنتهم حروبُ الأتيوبيين والآشوريين والفرسِ، التى استعرت نيرانُها زمناً طويلاً، وكانت نتيجتُها استيلاءَ الأجنبىِّ عَلَى البلاد، ففقد المصرىُّ كلَّ ما عُرِفَ به من الشجاعةِ والشهامةِ، ومضى فى تلك السبيل نَيِّفاً وعشرين قرْناً، تحتكمُ فيه جنودُ الفاتحين.

حتى أَذِنَ اللهُ لمصرَ أن تستعيدَ مجدَها الغابرَ، فبعث فيها بطلَ حريتِها واستقلالِها محمدَ علىّ باشا، فأنقذها من حكمِ المماليكِ،

ورأى بعد ذلك عاراً عليها ، ألاّ يكونَ لها جيشٌ من أبنائها ، يَحمى حِمَاها ، ويرفعُ عَلَمَها ، ويردُّ عنها المُغيرين ، ثم أمر بتجييش جيشٍ مصرىٍّ بَحْتٍ .

ما ظنُّك يا هذا بأبناء أمتِك وفِتْيَانِها ؟ هل تَلَقَّوْا هذا الأمرَ فَرِحين مستبشرين ؟ أو أنهم لِمَا رُبُّوا عليه من الظلم والاستبدادِ ، وما جُبِلوا عليه من الذِّلة والمسكنةِ ، وما نشئوا عليه من الجُبْنِ والخوفِ ، استقبلوه استقبال الصاعقةِ ، وَعَدُّوهُ أمْراً إِدًّا تكادُ السمواتُ يتفطرْنَ مِنْهُ ، وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هدًّا ؟

كانت عادةُ المصريين في هذا العهد ، أن يَفِرُّوا من وجُوه الحكام ويَهِيموا على وجوههم فى الأرض تاركين أبناءهم وبناتِهم إذا سألهم هؤلاء الحكامُ أن يَتَخَلَّوْا عن قديم مرذولٍ ، ويَتَحَلَّوْا بجديد معقولٍ ، لا تسألْ عن المصاعب التى اعترضت محمد علىّ باشا فى إنشاء جيش مصرىٍّ بَحْتٍ ، فإنه ما كان ليتغلبَ عليها . لولا العنايةُ الإلهيةُ . والتوفيقُ الرّبانىُّ ، والحظُّ السعيدُ .

كان فى بَدْء أمْره يعتمدُ فى حكم البلاد وتسكين فِتَنِها على الجنود العثمانيين . الذين كانت تبعثُ بهم الدولةُ العثمانيةُ من حينٍ الى حينٍ ، ولقد كان هؤلاء الجنودُ مختلفى الأجناس والميولِ ، فمنهم من كان شديدَ الطاعةِ له ، ومنهم من كان يَنْزِعُ الى التمرُّدِ والعِصيان ، فجمع محمدُ علىّ باشا طائفةً من الشبانِ المصريين قوةً واقتداراً ، وأمر بتدريبهم على الحركات العسكرية ، فأثار ذلك ثائرَ جنوده العثمانيين الذين لا يعرفون نظاماً ولا يخضعون لقانون ، فأعلنوا عِصيانَهم وتمردَهم ، وساعدوا الجنود المصريين على الفِرَارِ من ميْدان التعليمِ .

فأعاد محمدُ علىّ باشا الكَرَّة ، وجمع عدداً عظيماً من شبابِ مصرَ . وأمر أن يُعَلَّموا نظامَ الجندية خارج القاهرة . تحت إشراف القائد الأعظم ولده إبرهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوىّ ، وما هى إلاَّ أيامٌ حتى دخلت هذه الفرقة القاهرة كأنها البنيانُ المرصوصُ ، وهكذا صار يجتثُّ جذورَ الجبن من قلوب المصريين ويَغْرِسُ فى نفوسهم أخلاقَ الشجاعةِ والأَنَفَةِ ، ويَزِيدُ فى عدد

الجيشِ المصرىّ حتى استغنى به عن جيوش الدولةِ ، وأنشأ مدرسة لتعليم الفنونِ البحرية ، ومعملاً لصنعِ الذخائرِ ، وحَصّنَ الثغورَ المصرية أَمْنَعَ تحصين ، وهكذا صار المدافعُ عن مصر ابْنَهَا ، وحقّ لها بعد ذلك أن تفاخرَ الأُممَ بجيشها الباسل . واستقلالها الذى ثبتت دعائمه . وقوِيَتْ أركانُه .

أمّا أنت يا مُحَيّشَ الجيوشِ ، وقائدَ الجنودِ وبطلَ الأبطالِ ، فلك منا دعواتٌ صالحاتٌ ، وعليك منا سلامٌ عَطِرٌ ، فقد حررت بلادنا ، وجعلت لنا فى العالمين ذِكْراً .

---

(٢٦)

التعليم (١)

ما ظنُّك بأمة رسفت فى قيودِ الذُّلِّ والاستعباد زَمنَ المماليكِ والعثمانيين ؟ وما ظنك بشعبٍ يُسَخَّرُ لخدمة سادتهِ الجاهلين وحُكامهِ الظالمين ؟ أيكونُ للعلم بين ربوعِ هـذه الامةِ عَلَمٌ خفَّاقٌ ، أيكون للعِرفان فى آفاقِ هـذا الشعب سُوقٌ نافِقَةٌ ؟ أيكونُ لمعاهِدِ التعليمِ ومدارسِه مقامٌ معلومٌ ؟ كلا . كيف يتعلمُ مَنْ أمْرُه بيد جاهلٍ ؟ كيف يتعلمُ مَنْ لم يجِدْ معلماً ولا دَارَ عِلمٍ ؟ كيف يتعلمُ الخائفُ المترقِّبُ . الذى لا أَمْنَ له على عِرْضٍ ولا مال ؟ كيف يتعلمُ مَن يعادِى حكامه وملوكُه العِلْمَ والمتعلمين ؟

لعلك بعد ذلك تُدركُ أن البطلَ الكبيرَ محمد عليّ باشا وَلِيَ أمر مصرَ . وربوع العلمِ فيها مُقْفِرَةٌ . ومنابتُ العِرْفانِ فيها مُجْدِبةٌ ، فكبُرَ عليه أن يَغرسَ النبات فى حقولِ أقاليمِها ، قبل أن يبذرَ بذورَ العلمِ فى عقولِ أبنائِها ، فَصَمَّمَ على فتح المدارسِ على اختلافِ أنواعِها . لتغذيةِ عقولِ المصريين بِلبَانِ العلمِ الحديث .

قامت فى طريقه إذ ذاك عقباتٌ جَمَّةٌ ما كان له أن يتغلَّبَ

عليها . لولا أنَّ إرادتَه كانت حديدية ، وعزمَهُ كان صارماً ، شاد المدارسَ الابتدائيــةَ ، والثّانوية ، والعالية ، والخصوصيةَ ، فى أمهاتِ مُدُنِ القُطرِ ، وأعدَّ أدواتِ التعليم ، والمعلمين الذين كان جُلُّهم من الأجانبِ ، ودعا النَّاسَ الى تعليم أبنائهم فى هذه المدارس ، فما كان جوابهم إلاّ أَنْ قالوا ، ما لَنا ولِلمدارسِ نُلْحِقُ بها أبناءنا يتعلمون فيها علوماً لا عَهْدَ لنا بها ؟ ما لِلْمُبْصِرين وللتّعلمِ ؟ وما سَمِعْنا أن غَيْرَ العُمْيِ يتعلمون ، اشتدَّ عليهم وقسا ، وأخذ أبناءهم قوّةً واقتداراً ، وأدخلهم المدارسَ وآباؤهم يبكون ، ظنّاً منهم أن هؤلاء المتعلمين سيفارقونهم يوماً ما ، أو أنهم سيسخرون فى خدمةِ الْحُكّامِ ، أو أنهم سيكونون عاطلين لا يقدرون على جلْب قوتِهم ، ولو علمت يا هذا طُرُقَ الحِيَل التى كان يستعملُها آباؤك فِراراً من العلم ومعاهِده ، لَرَثَيْتَ لحالهم وعرفتَ أنهم كانوا فى ضلالهم يَعْمهون .

على أن هذا المصلحَ العظيمَ ، لم يسألهم على هذا التعليم جزاءً ولا شُكوراً ، وسَرْعانَ ما بزغت فى مصرَ شمسُ العِرفانِ ، وجالَ الذّكاءُ المصرىُّ فى ميدانِ العلوم الحديثة جَوَلاَناً عظيماً .

(٢٧)

التعليم (٢)

إذا كنت قد آمنتَ بأن محمدَ علىّ باشا أرغم الشعبَ المصرىَّ على ولوجِ أبوابِ العلمِ إرغاماً ، وأن الطلّابَ كانوا يؤخذون قسراً من دُورهم فَيُسْقَوْنَ كؤوسَ العلمِ مُكرهين ، وأن الزّمنَ لم يكن كافياً لِمَزْجِ محبة العلمِ بدمائهم ولحومهم ، اذا كنت عرفت ذلك ، فاعْرِفْ أن نارَ حياةِ البطلِ العظيمِ لم تكد تخبو ، حتى خبا معها مصباحُ العلمِ فى البلادِ ، فهجر كثيرٌ من طلابه مدارسَهم ، وطاف بالمعاهد طائفُ العفاء ، فذبلَتْ أغْصانها ، وهى لم تزلْ بعدُ فى عهد الغضارة والنضارة .

ولولا أنْ تداركَ الله كنانته ، فبعث فيها سيدَ المصلحين المغفورَ له إسماعيلَ باشا ، لعادت مِصْرُ سيرتَها الأُولى .

جلس على عرشها بعد أن أخذ من العلوم الاوربية الحديثة بنصيب وافر فى معاهدها الكبيرة ، وجامعاتِها العظيمةِ ، وامتلأتْ نفسهُ إعجاباً بمدنيةِ القومِ ورقيهم ، فأخذ على عاتقهِ

أن يؤدبَ المصريين بأدب الغربيين ، وأن يَنْشرَ فى ربوع مصرَ أعلامَ تلك المدنيةِ العظيمةِ ، غيرَ مبالٍ ما أنفقَ فى ذلك من راحةٍ ومالٍ ، عَمَرَ من المعاهد والمدارس ما عَبِثَتْ به أيدى البِلَى ، وعُنِيَ بإنشاء مدارسِ المعلمين ، وأهابَ بالمصريين أن أَذِيقوا أبناءكم حلاوةَ العلمِ ، فطالما تجرعوا كؤوسَ الجهلِ ، فأقبل المتعلمون من كل فَجّ طائعين أو مُكْرَهِين ، وضاقت بهم صدورُ المدارسِ ، وازدحمت مقاعدُها ، وتقدمَ إلى المعلمين ، أنْ كَسِّروا قيودَ الذكاءِ المصرىّ وفُكُّوا أغلالَه وأَطْلِقُوا له العِنَانَ ، يَنهضْ بتلك الأمةِ الكريمةِ ، ويَجْرِ بها فى ميدانِ الرقى شوطًا بعيداً .

سَرَتْ نهضةٌ فى البلاد مباركةٌ ، ورجحت كِفَّةُ العلمِ وأخذ الناسُ ينفضون غُبارَ الجهلِ ، ويُعْتِقُون عقولَهم من رقِّ الجمودِ والتشبثِ بالقديم ، وهكذا وجدَ هذا المصلحُ عقولَ المصريين صالحةً لبذرِ بذورِ العلمِ الصحيح ، فبذرها وتعهدها حتى نمت وترعرعت وآتتْ أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها .

(٢٨)

التعليم (٣)

غادر ساكنُ الجِنانِ إسماعيل باشا مُلْكَ مصرَ وَرِياضُ العلمِ فيها يانعةٌ، وجاء خلفاؤه فما زادوا على الاحتفاظِ بما شاد من معاهده إلا قليلاً، حتى نظر اللهُ سبحانه وتعالى لهـذه الأمةِ نَظَرَ رحمةٍ وشفقةٍ، وأراد جلتْ قدرتُه أنْ تَبْزُغَ فيها شمسُ العلمِ بزوغاً لا أفولَ له من بعدُ، فبعث فيها نصيرَ العلمِ، وملاذَ العلماء، جلالةَ مولانا الملك الأعظمَ احمد فؤاد الأول.

ما كاد يطمئنُّ على أريكةِ الملكِ، حتى أقام القِلاَعَ والحصونَ، وأعدَّ المُؤَنَ والذخائرَ، وجيَّشَ الجيوشَ، وأعلن عَلَى الجهل فى مصرَ حرباً عَوَاناً، وما زال يطاردُه أينما وُجِدَ، ويقاتله حيثُما خَيَّمَ، ويقفو آثارَهُ أنَّى حَلَّ، حتى بدَّدَ شملَه، وفرَّقَ جنودَه، وما هى إلا فلولٌ تَهِيمُ على وجهها فى الأرض، تتعقبُها كتائبُه، وتأخذُ عليها السُّبُلَ سراياهُ، وعما قليلٍ ينتشرُ فى الديار من أقصاها إلى أقصاها، خبرُ انهزامِ الجهلِ وانسحابِ الأُميَّةِ، أمامَ جيشٍ

بالعلمِ الظافرِ ، وعما قليلٍ تضعُ الحربُ أوزارَها ، وتَجْنى العقول ثِمَارَ حريتِها واستقلالِها .

دَعْ عَالَمَ الخيالِ ، وارجِعِ البصرَ كَرَّةً ، وتعلَّقْ بأهداب الحقيقةِ ، وقلْ لى بربِّك ، هل تَرى فى مصرَ بعد أن جلس على عَرْشِها مليكنا المحبوبُ سُوقاً أَرْوَجَ من سوق العلمِ ؟ هل تسمعُ فى نواحى الديار لغير العلم ذِكْراً ؟ أَلَيْسَ هؤلاء الطلابُ الذين يَغْدون صباحَ كلّ يومٍ إلى موارد العلم جنوداً حَشَرَهُم لمنازلةِ الجهل؟ أليست تلك الكتبُ والمؤلفاتُ التى تظهرُ كلّ يومٍ عُدَداً لمصارعة الجهلِ ومجالدته ؟ أليست تلك المعاهدُ التى يُرفَعُ بنيانُها وتُدْعمُ أركانُها حصوناً ومعاقلَ لصدِّ غاراتِ الجهلِ ؟ أليس مَنْ يقودُ الجيوشَ ، ويُدَبِّرَ أمْرَ القتالِ ، ويَهْزِمُ العدوَّ ، جديراً بالحب الخالصِ ، والوُدِّ الصميمِ ؟ . إن قائدَ هذه الحرب الضَّرُوسِ ، هو جلالة مليكنا الأعظم أحمد فؤاد الأول .

شاد المدارسَ المختلفةَ ، والمعاهدَ المتنوعةَ ، فى جميع مُدُنِ الوادى ، ونَشرَ مدارسَ المعلمين ، فى أرجائه ، ثم أَمَرَ بإنشاء

المدارس الأوليةِ في جميع القرَى والدساكرِ ، وأَنْ يتغذَّى فيها بِلبانِ العلمِ جميعُ أبناء وبناتِ الأمةِ ، غَيْرَ مسئولين جزاءً ولا شكوراً ، أليس مليكُنا جديراً منا ، بأن نذكرَهُ ، ونُرتِّلَ آياتِ حَمْدِهِ ، والثناء عليه، حينَ نُمْسِي وحين نُصْبِحُ ، وأن نَتَّجِهَ إلى الله العليّ القديرِ ، متوسلين إليه بخير أنبيائه ، أن يحفظَ لنا وللكنانةِ حياتَهُ وحياةَ وليّ عهدِه ؟ .

(٢٩)

علماءُ أَوْرُبَّةَ فى مِصْرَ

لما أراد مُحَرِّرُ مصرَ ومُنْقِذُها البطلُ الكبيرُ محمدُ عليٍّ باشا ، أن يَبْذُرَ بذورَ العلمِ فى مصرَ ، قامت فى سبيله عقباتٌ كثيرةٌ ، أهمُّها حاجةُ البلاد إلى المعلمين الذين يُثقِّفُون عقولَ الناشئين ، فإن معينَ العلمِ فيها كان ناضبًا ، ويكادُ لا يوجدُ من أولى العلمِ إلا بعضُ علماء الأزهرِ ، الذين كانت معارفُهم إذ ذاك لا تتجاوزُ بعضَ العلومِ الفقهيةِ والنحوية .

اجتاز تلك العقبةَ كما اجتاز غيرَها من العقباتِ ، فَعَهِدَ بتعليم العلومِ الغربيَّةِ الحديثةِ إلى معلمين أكفاء ، جاء بهم من فرنسا وإنجلترةَ وغيرهما ، وأغدقَ عليهم عطاياه ، فقاموا بما عُهِدَ إليهم خيرَ قيامٍ ، وأسسوا بناءَ العلمِ فى مصرَ عَلَى أُسُسٍ متينةٍ ، حتى إذا جاء عَهْدُ إسماعيلَ ، وقد بهره العلمُ ومعاهدُه فى أَوْرُبَّةَ ، لم يجد فى الاستعانة بعلمائها غَضَاضَةً ولا ملامةً ، بل إنه رأى الانتفاعَ بنتائجِ عقولِهم وثِمارِ أفهامِهم أمرًا لازمًا ، فجاء بكثيرٍ من

أساتذتِهم ومُرَبيهم ، وبَثّهم فى أمّهاتِ المدنِ المصريةِ ، وأمرهم أن يترسموا فى تربيتهم وتعليمهم طُرُقَ المؤدبين هناك ، حتى ينشأ على ضِفافِ النيلِ شعبٌ يشبه فى علومِه ومعارفِه ومدنيتِه الشعوبَ الأوربيةَ ، وحتى تتصلَ الأفهامُ الأوْرُبيّةُ بالأفهامِ المصريةِ ، رَغْمَ ما بينهما من بحرٍ لُجّيٍّ يَغْشاه موجٌ من فوقِه موْجٌ .

فلما أَذّنَ مؤذّنُ السعادةِ فى مصرَ ، وَوَلِىَ أمْرَها خيرُ مَن حكمها جلالةُ مولانا الملكُ أحمد فؤاد الأول ، تقدم إلى هؤلاء العلماء والمستخدَمين ، أن امْضُوا فى سبيلكم ، وارتقوا بشعبى وأبناء أمتى إلى أَوْجِ الكمالِ ، وعما قليلٍ تستغنى بلادى بمن أنجبتهم معاهدُها ومعاهدُ بلادِكم ، عن ورود العلمِ من مناهلِكم ، وسوف تسجّلُ لكم على صفحاتِ قلوبها ما أسديتم إليها من جميلٍ ، وتَجْزيكم أجْرَ ما صنعتم ، وتُودِّعُكم وَداعَ الذاكرِ للمعروفِ الشاكرِ للصنيع .

هكذا ظلت مصرُ فى أيام نهضتِها العلمية ، تستعينُ بأهل العلم فى أوْرُبّةَ حتى توثقتْ بينهما عُرَا المحبةِ ، وقَوِيَت أواصرُ

الألفةِ ، أرأيتَ ياهذا لو أن هؤلاء المصلحين وَكَلُوا أمرَ التعليم والمناصب الكبرَى فى مصرَ إلى أبنائها منذُ وُلُّوا أمرَها أكانت تقومُ للعلم فيها قائمةٌ ؟ أم كنا لا نزالُ فى بحار الجهلِ غارقين ؟ اللهم اجْزِهم بالإحسان إحسانًا ، واجعلنا من عبادك الذين يشكرون للمحسنِ ولا يَكْفُرُون نِعَمَهُ .

(٣٠)

البُعوثُ العلمية (١)

لم يرضَ محمدُ علىِ باشا للشعبِ المصرى أن تحتكمَ فيه الجنودُ الأجنبيةُ . ولا أن يدفعَ عنه ويتولّى حِراستَه إلاّ أبناؤه — لذلك دعا المصريين الى الجندية . وألّف منهم جيشاً كان ولا يزال معروفاً بالبسالة وحُسْنِ النظامِ . إذا كان لم يأمَنْ على البلاد شرَّ الجنود المرتزقةِ . فهل يأمنُ على عقولِ الشعبِ ومداركه خَطَرَ المعلمين الأجانبِ الذين كانت تُلجئُه الضرورةُ إلى تنصيبهم فى مناصبِ التعليمِ ؟ وهل يأمَنُ على المناصب الإداريةِ والقضائيةِ والماليةِ الكُبْرَى فيجعلُها فى أيدى الأجانب ؟ كلا . إن هذا البطلَ وضع نُصْبَ عينيهِ منذُ حَمَلَ أمْرَ مصرَ أن يمنحَها استقلالاً تامًّا ، فى العلم ، والصناعة ، والزراعةِ ، والجندية ، والماليه . لذلك قام بكل أنواعِ الاصلاحِ دَفعةً واحدةً وعَهِدَ بكثيرٍ منها الى ذوى الخبرةِ من رجالاتِ أوْرُبّةَ لعدم وجود الأَكْفاء من المصريين ، على أن استخدامَه لهؤلاء الأجانب لم يكنْ إلاَّ رَيْثما

تعودُ نُخْبةٌ من أبناء مصرَ، الذين بعث بهم إلى أُورُبَّـةَ ليَرِدُوا فيها مناهلَ العلم، ويعرفوا مبلغَ ما وصل إليه القومُ من المدنية، والحضارة، والنظام، فيتولَّى أفرادُ هـذه النخبةِ مناصبَ التعليم والإدارة وغيرِهما، وهكذا صارَ يبعثُ البَعْثَ تِلْوَ البَعْثِ، ويَعْهَدُ بإدارة دولابِ الأعمال فى البلاد إلى أبنائها الذين عادوا من أُورُبَّـةَ كِبَارَ العقولِ عُشَّاقَ النظامِ.

إذا كان هذا عملَ المنشئِ فما بالُكَ بحفيده إسماعيلَ باشا، الذى انغمس فى بحار المدنية الأُورُبِّيّة، وامتلأت نفسُه إعجاباً بها أظنُّك لا تشكُّ فى أنه جعل لتلك البعوث الشأنَ الأولَ من رعايته، كانت نفسُه تحدثه دائماً بأن يجعلَ مصرَ قطعةً من أُورُبَّـةَ علماً ومدنية ونظاماً ورقيًّا، لذلك كان لا يَدَّخِرُ وُسْعاً فى نقل مدنيتهم، وعلومهم إلى مصرَ، وكان لا يرى طريقاً أنْجَعَ لذلك، من أن يبعثَ بأبناء مصرَ إلى معاهدِ أُورُبَّـةَ ومعارضها العلميَّة، ويُلْحِقَهم بها على نفقته، فإذا أتموا الدراسةَ وجاءوا مُزَوَّدين بخيرِ العلوم ولَّاهم إدارةَ شئون البلاد، فكانوا لها خيرَ المصلحين.

(٣١)

البعوث العلمية (٢)

إذا أنت طفْتَ ممالكَ أُورُبَّةَ ، وتنقلتَ بين دُولاَتِها ، ودخلت مدارسَها ، قلَّ أن تجدَ مملكةً ، أو دُولةً أو مدينةً ، أو مدرسةً خاليةً من فِتْيَانٍ مصريين ، وإذا أنت سألت هؤلاء الذين انتشروا فى أرجاء أُورُبَّةَ انتشاراً عظيما ، ما جاء بكم إلى هذه الديار النائية ؟ أجابوك إننا طُلاَّبُ علمٍ ورُوَّادُ عِرْفانٍ ، وبُغَاةُ مدنيةٍ ، وَجَّهَنا إلى هذه الوُجْهَةِ ، وسلَكنا فى هذا السبيل ، مليكنا الأمجدُ ، أحمدُ فؤاد الأول ، الذى أعظَمَهُ أن يرى المدنية الأورُبِّيةَ قد بلغت من الرقىّ شأواً بعيداً ، والمصريون تَنْقُصُهم هذه المدنيةُ ، ويُعْوِزُهم عِرفانُ أسرارِ المخترعاتِ الحديثة . تقدم صاحبُ الجلالة إلى رجالِ حكومتِهِ ، أنِ اختاروا من أبناء أمتى ناشئين نابهين ، ذوى أخلاقٍ فاضلةٍ وعقولٍ راجحةٍ ، وحبٍّ للعلم غريزىٍّ . وأشْخِصُوهم على نفقة بيت المالِ إلى المدائن الأورُبِّيةِ . وألْحِقُوهم بجامعاتها العلمية . ولْتَنْفَرِدْ كلُّ طائفةٍ

من طوائفِ المبعوثين بالتخرج فى نوع من العلوم واختاروا طائفةً من فَتيَاتِ مصرَ ، يجرى عليهن ما جَرَى على إخوانهن ، ووَلُّوا على الجميع رُقَباءَ ذوى خبرةٍ بعلم النفس والأخلاق ، ودرايةٍ بما تحتاجُ اليه بلادى فى مرافقِ حياتها ، فإنى أرى ذلك خيرَ وسيلة لإنهاض مصرَ . والصعودِ بها فى مراقى الفَلاح .

وإذا أنتم أَلَّفْتم تلك الوُفودَ العلميةَ . فلا تَدَعُوهم يرحلون حتى يقفوا بين يدىَّ . ويسمعوا لنُصْحِى ، صدع رجالُ الحكْمِ بالأمر ومَثَلَ كلٌّ منهم بين يَدَىِ المليكِ ، ومعه نخبةٌ من شبابِ مصر النَّاهض ، فابتسم فى وجوههم ابتسامةَ الوالدِ الشفيقِ لأبنائه البَرَرةِ ، ثم نثرَ عليهم دُرَرَ نُصْحِه ولآلئَ وَعْظِه ، وكان فيما قال لهم : أيها الأبناء تفارقون اليومَ وطنَكم الى وطنٍ لم تألَفُوهُ . لِتَرِدُوا مواردَ العلمِ ثم تعودوا إن شاء اللهُ للاشتراك فى بناء مجد وطَنِنا العزيز . فإذَا ما حططتم رِحالَكم هناك ، فاجعلوا نصب أعينِكم تثقيفَ عقولِكم ، وانظروا فى عادات القومِ وأخلاقِهم ، فما كان منها مُوافقاً لمبادئ ديننا الحنيف فتخلّقوا به ، وما كان مخالفاً لها

فتخلَّوْا عنه ، ولا تَغُرَّنَّكمْ مظاهرُ القوم الكاذبة ، ولا تُنْسِيَنَّكمْ لغتُهم لغتَكم ، فإنَّ فيها فَخْرَ الشرق والشرقيين ، وأنتم بعد ذلك قافلون .

فأجاب الطلابُ : فى طاعتكم نسافرُ ، وعلى ولائكم نقيمُ ، وعَلَى بَركتكم نعودُ ، وفى بناء مجد الوطنِ نقضى حياتَنا ، بَقِيتَ لمصرَ ذُخْراً ، وبَقِيَ لها فاروقُ فَخْراً .

(٣٢)

الصناعة (١)

كانت الصناعةُ ولا تزالُ عنوانَ رقىِّ الأممِ، ومَباءةَ فَخْرِها لأنها نتيجةُ إعمالِ العقلِ وإجهادِ الفكرِ، فإتقانُها دليلُ الذكاء وبُرهانُ النبوغِ، ألم تَرَ إلى الأمم الغربيـة التى ملكت زِمامَ الصناعةِ فى العالم وقبضت على ناصيتها. كيف تعدو على الشعوب الشرقيةِ فَتَمْلِـكُهاَ، وتنقضُّ عَلَى الدول الضعيفةِ، فتُرْهِقُها فى أوطانها، ولا سلاحَ للغاصبين إلاَّ ما صنعت أيدى أبنائهم، فهم يُلَوِّحُون للضعيف بمصنوعاتٍ خَلاَّبةٍ، تأخذُ بلُبِّه، وتَملِكُ عليه مشاعِرَهُ، ثم يبتاعون حريتَهُ واستقلالَه بمثل هذه المصنوعاتِ، التى لا يرى لنفسه غِنًى عنها.

لعلك بعد ذلك عرفت أن الصناعةَ سرُّ رقىِّ الأممِ، وأن محمدَ علىِّ باشا قبض على زمام مصرَ وليس للصناعة فيها سُوقٌ رائجةٌ. وأنه كتب عَلَى نفسه ترقيةَ كلِّ مواردِ الثروةِ فيهـا، وتقليلَ حاجتِها إلى الأممِ، وأنها خاليةٌ من العناصر الأوليةِ للصناعةِ.

فليس فيها الفحمُ والحديدُ وهما قِوَامُها وعمادُ ارتقائها ، أهابَ بالمصريين أَنِ اصْنعوا بأيديكم ما تتطلبُه حياتُكم من أدوات خشبيةٍ وثيابٍ وآنِيَةٍ وما إلى ذلك ، فأجابوا يُعْوِزُنا المعلمون ، وتنقصُ بلادَنا الآلاتُ الصناعيةُ ، والمادةُ الأصلية للصناعة ، فرَوَّى قليلاً ، ثم قال لَأَجْتَازَنَّ تلك العوائقَ ، ولأجْعلَنَّ للأيدى المصرية مجالاً فى الصناعة ، ثم أمر فأُنشئتْ مصانعُ المدافعِ ، والذخائرِ الحربية ، والسفنِ البحرية ، ومدارسُ النجارةِ ، والبرادةِ والحدادةِ ، فى حواضرِ البلادِ ، ثم أسلم ذلك لأحفاده المصلحين ،

فلما أن جاء البشيرُ باعتلاءِ نصيرِ المدنية والحضارةِ إسماعيلَ باشا عرشَ مصرَ سَرَتْ فى دُورِ الصناعةِ ومعامِلِها رُوحٌ جديدةٌ . ونَشِطَ الصنَّاعُ من عِقالهم ، وتبارَوْا فى إتقان ما يصنعون ، وزادَ نشاطَهم ودقَّتَهُمْ كَثْرَةُ الْمُنْشَآتِ التى لا تقومُ إلاَّ عَلَى أيدى الصانعين ، كالقصور الشاهقةِ ، والسككِ الحديدية ، والقناطرِ ، ولعل تشجيعَ إسماعيلَ باشا للصناعة ، والصناع فى عهده السعيد إن لم يَزِدْ فى قيمته عما عَمِلَ لها محمدُ علىّ باشا ، فإنه لا يَقِلُّ عنه وكلاهما صاحبُ فضلٍ عليها لا يُنْكَرُ ، وجميل لا يُنْسَى .

(٣٣)

الصناعة (٢)

هل أتاك حديثُ المدارسِ والمعامل والملاجئِ الصناعيةِ في القاهرةِ، والإسكندرية، وأسيوط، والمنصورةِ، وبورسعيد، وغيرِها من مُدُنِ الوادي وقُرَاهُ؟ هي دُورٌ للصناعة عامرةٌ، وميادينُ للذكاء المصريِّ، والمهارة الشرقيةِ، يختلفُ إليها الناشئونَ، مَفْتُولي السواعدِ، أقوياء الأجسامِ، يتلقونَ العلومَ العقليةَ من معلمين أكفاء، ويتعلمُ كلُّ فريقٍ منهم الصناعةَ التي يكون لعقله ويده فيها مَجَالٌ. ثم يغادرونها بعد أن يَبْرَعُوا في حِرَفِهِم، وَيَنْبَثُّون في البلاد ويُنْشِئُونَ المصانعَ والمعاملَ الأهليةَ بين رُبوعها. وإذا شئت أن تعرفَ مبلغَ رُقِيِّ الصناعةِ في بلادك، وتَكاثُرَ عددِ الصُّنَّاعِ فَجُلْ بين أسواقها، وطُفْ بمحالجِ القطنِ، ومناسجِ الثيابِ، ومدابغِ الجلودِ، ومطاحنِ الحبوبِ، ومعاصرِ الزيوتِ والسكر، ومضاربِ الأرزِ، ومَصابغِ الأنسجةِ، ومصانعِ

الاحذِية ، ومعاملِ النجارة والحدادة ، فإنك وَاجدٌ فيها ، ما يُثْلِجُ صدرَ المِصرىّ ، ويبشرُه بمستقبلٍ للصناعةِ عظيم ، وإذا رُمْتَ أنْ ترى مهارةَ البَنّاء ، وبراعةَ النَّقاشِ ، وذكاء المهندسِ ، فادخلْ قصراً من قصورِ سَراةِ النَّاسِ فى بلادنا ، وتأملْ ما حاكته فيه وفى أثاثه يَدُ الصانعِ المصرىِّ ، تَرَ العَجَبَ العُجابَ من الدقة والإتقان .

كانَت الشكوى من جهلِ الصانعِ المصرىِّ وسوءِ أخلاقِهِ ، وعدمِ وفائه ، بالغةً عَنَانَ السماء ، وها هى ذى المدارس الليليةُ قد فتحت لتهذيب نفسهِ ، وتقويم أخلاقِهِ ، وتعويده الاعتمادَ عَلَى النفسِ والميلَ إلى المعالى .

أتدرى يا هذا فى أى عهدٍ بدأت الصناعةُ المصريةُ تَرْقَى والصانعُ يَجْنِى جَنَاهَا ؟ أتدرى لمن يرجعُ الفضلُ فى الأخذ بيد الصناعةِ والصُّنّاعِ ؟ إن ذلك كان فى أزْهَى عصورِ المدنيةِ والعلمِ ، عصرِ جلالةِ مولانا الملكِ أحمَدَ فؤاد الأول ، عرف للصناعة خَطَرَها وقيمتها فى النهوض بشعبه فأوْلاها عنايتَه ، ومنحها رعايتَه ،

وشاد مدارسَها ، وأنشأ معارضَها ، وكافأ المجيدين وشجّعَ الماهرين ،
أرأيتك لو أخبرتُك بعد أن وَقَرَ فى ذهنِك أن مصرَ بلادٌ زراعيةٌ
وليست صناعيةً أن الصناعةَ المصريةَ ستأخذُ زُخْرُفَهَا وتتزيّنُ
أكنتَ مُصَدِّقًا ؟ لو لا أَنْ رأيتَ بعينك ، وسمعتَ بأذنك ،
ما تَلْقَى الصناعةُ والصناعُ كلَّ يومٍ من تشجيعِ المليكِ المحبوب ؟
حرس اللهُ ذاتَه الشريفةَ ، وكَلَأَ وليَّ عهدِه الأكرمَ .

---

(٣٤)
النساجة

حاجةُ الإنسانِ إلى الثياب لا تقلُّ عن حاجته إلى الطعام والشراب، فهو يتقي بها حرَّ الهجير، وبَرْدَ الزمهرير، ويتخذها زينةً له، ويتجملُ بها في المحافل، ويَعْظُمُ بها في العيونِ، وأسعَدُ البلادِ ما لَبِسَتْ من نَسْجِ أيدي أبنائِها، وأسعَدُ النساجين مَنْ تيسرَ لهم تحصيلُ الخيوطِ من بلادهم.

لم تَخْفَ هذه الحقائقُ على محررِ مصرَ ومنقذِها، بل وضحت له وضوحَ الشمسِ في رابعةِ النهارِ.

نَظَرَ فإذا هو يجدُ البلادَ خاليةً من عناصرِ النساجةِ اللهم إلا قليلاً من الكتان، فماذا أعد لتلافي هذا النقصِ العظيم؟. لم يشأ أن يعالجَ مريضَه عِلاجاً مُسَكِّناً لِآلامِهِ فقط، ولكنه عَمِلَ على استئصالِ الداء، فجلب الأغنامَ من البلاد الأجنبيةِ، وأعدَّ لها المراعِيَ، وجلب دُودَةَ القزِّ، وزرعَ لها أشجارَ التوتِ وجلب القطنَ كما عامتَ من الهند وعُنِيَ بترقيةِ زراعةِ الكتان في مصرَ، وما هو إلا قليلٌ، حتى أنشأ المغازلَ لغزلِ القطنِ، والصوفِ،

والحريرِ، والكتّان، وتلا ذلك إنشاء مناسجِ الثيابِ على اختلافِ أنواعِها في حواضرِ مصرَ وقُراها، وما مناسجُ دمياطَ، والمحلةِ الكبرى، والقاهرةِ، والإسكندريةِ، وإخميمَ، وفوةَ، وغيرِها إلا ثمراً لغرس هذا المصلحِ العظيمِ

على أن اختراعَ المغازلِ والمناسجِ التجاريةِ في بلاد الغربِ شَلَّ يَدَ الصانعِ المصريَّ الذي لم يجدْ من يأخذُ بيده بعد البطلِ الكبير، فأصابَ النساجةَ في بلادنا ما أصابَ غيرَها من الهُزَالِ، وَكِدْنا نكونُ عالةً على الأممِ الغربيةِ، إن شاءت لَبِسْنا، وإن شاءت عَرِينا، لولا أن تداركَ الله الكنانةَ بلطفِه، ومنَّ عليها بمُحْيي مجدِها، ومُجَدِّدِ عِزِّها، مولانا الملكِ أحمدَ فؤاد الأول، الذي جرت في عهده السعيدِ مياهُ الحياةِ في أجسامِ المناسجِ الأولى، وأُنشئتِ المغازلُ والمناسجُ على الطِّرازِ الأوْرُبِّي في كثير من نواحي القطرِ، ولبس يَمضِي غيرُ قليلٍ، حتى يَرْفُلَ كلُّ مصريٍّ في أثوابٍ حاكَتْها أيدي أبناء جنسِه، وتحققَ أمنيةُ مليكِنا الأعظمِ، فيرى أمتَه غنيةً بزراعتها وصناعتها وتجارتها عن غيرها من الأمم.

(٣٥)

التجـارة

كانت التجارةُ ولا تزالُ من أقوى أسبابِ التعارفِ والتآلفِ ، ولا أدلَّ على شرفها وسموّ مكانتِها من اشتغالِ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ بها ، ورواجُ أسواقِها فى أمةٍ من الأمم دليلُ الحياةِ ، والنشاطِ ، والرخاء ، وبُعْدِ الصيتِ ، وتَبيعُ البلادُ عادةً ما زاد عن حاجتها من ثِمارِ بلادها ، وتبتاعُ ما تحتاجُ اليهِ من مواردِه الأصليةِ ، تسلَّمَ محمدُ عليّ باشا مصرَ ، وقد قطع الظلمُ والاستبدادُ والتأخرُ كلَّ رابطةٍ بينها وبين غيرها من الأممِ ، حتى صارت بِمَعْزِلٍ عن العالَمِ ، بعد أن كانت من أعظم الأمم التجارية فى عهدها القديم ، فأراحها أولاً من عِلَّةِ شقائِها (المماليكِ) ، ثم أقبل على ثغورها فأنشأ بها المرافقَ ، وفتح أبوابَها للتُّجَّارِ من الأمم الراقية ، ورحَّب بهم وبمتاجرهم ، وسهَّل لهم نَشْرَ بضائِعهم فى البلاد ، وأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم ، ولعله أراد أن يَألفَ المصريُّ معاشرةَ الأجنبيّ ، ويرى آثارَ صُنْعِ أيدى الأجانبِ فتتولدَ عنده الرغبةُ فى محاكاتِه وكذلك

أنشأ سُفُناً تجاريةً شراعيةً ، وجعلها تغدو وتروحُ بالمتاجرِ فى البحرِ بسلام ، بين ممالكِ أُوْرُبَّةَ الجنوبيةِ ومصرَ ، حتى إذا كان عهدُ المصلحِ العظيمِ ، إسماعيلَ باشا دَبَّتْ فى التجارة المصرية رُوحٌ جديدةٌ ، ونَشِطَتْ نشاطاً عظيماً ، وأقبل الأجانبُ من كل فجٍ بمتاجرهم آمنين مطمئنين ، وكَثُرَ تبادلُ المنافعِ بيننا وبينهم ، وانتشرت فى بلادنا مخترعاتُهم الحديثةُ التى أراد إسماعيلُ باشا أن يجعلَها نَواةَ مدنيتنا وحضَارَتِنَا ، وكذلك أقبل ذوو الأموالِ العظيمةِ ، وأنشئوا المصارفَ فى مصرَ ، فسهّلوا طُرُقَ البيعِ والشراء وأعانوا المصريَّ فى تجارته وصناعته وزراعته بما أقرضوه من المال ، وأنشئت المحاكمُ المختلطةُ ، وأصلحت المرافقُ ، وبنيت الأساطيلُ التجاريةُ والبريديةُ ، وهكذا اتجهت أنظارُ الدولِ نَحْوَ مصرَ ، فأقبلن عَلَى قطنها وحبوبها يشترينها ، وجِئْنَ بمصنوعاتِهن ، وخشبِهن ، ومعادنهن ، وملأن بها البلادَ .

ظلت التجارةُ فى مصرَ ناميةً نماءً طبيعياً ، حتى جلس على أريكتها سليلُ المجدِ جلالةُ الملكِ أحمدَ فؤاد الأول ، فانتظمت سُبُلُ التجارةِ فيها ، بعد أن ارتقت زراعتُها ، وانتشرت طرقُ المواصلاتِ فيها ،

وعَمَّ الرخاءُ أرجاءها ، وفُتِحَتْ لتعليمِ أبناءِ الأمةِ المدارسُ التجاريةُ ، وأنشئت فى عواصمِ القطر بيوتُ التجارة التى يأخذ جمالُها وتنسيقُها بمجامعِ القلوب ، ويكادُ المرءُ يَلْمَسُ بيده النشاطَ التجاريَّ فى أى صُقْعٍ من الأصقاعِ المصريةِ ، وإذا كانت زيادةُ أثمانِ ما تبيعهُ أمةٌ عن أثمانِ ما تشتريه دليلاً على الرَّخاء والغِنَى ، فإن المصريَّ لَيُبَشِّرُ نفسَه بمستقبلٍ عظيمٍ لبلاده ، ويتمنى لمن أثْرَتْ مصرُ فى عهده عُمراً طويلاً .

(٣٦)

الحروب

تجلَّتْ بسالةُ المصريِّ في ثلاثة عصورٍ من عصوره التاريخيةِ. فقد دَوَّخَ المصريون الممالكَ . وفتحوا البُلْدانَ . ونشروا رايتَهم عَلَى أكثرَ الأمِم الآسيَوِيَّةِ في زمن الأُسرتين القديمتين الثامنةَ عشرةَ والتاسعةَ عشرةَ، ووقفوا في وجه الصليبيين وقفةَ الأُسودِ في عصر الفاطميين والأيوبيين، وأظهروا من الإقدام والشجاعة ما لا تزالُ الأممُ تتحدثُ به في عصر الفاتح العظيم محمدِ عليٍّ باشا فقد وَلِيَ أمْرَ مصرَ وسِلْسِلَةُ الفِتَنِ فيها محكَمَةُ الحلقاتِ، والمِصريون فريسةٌ بين أنياب الغاصبين، فأطفأ في البلادِ نيرانَ الفِتَنِ، وأنقذ السكانَ من الفناء، وألَّفَ فيها جيشاً عظيما من أبنائها الذين استكانوا للظلم زمناً طويلاً، وفقدوا كل مزايا البسالةِ والإقدامِ، فلما اشتعلت نيرانُ الحرب بين اليونانِ والدولةِ العثمانيةِ، وأرادت الأولى أن تحررَ شعبَها من حكم العثمانيين، لم تجدْ الدولةُ قائداً أشجعَ ولا جيشاً أبْسَلَ، من محمدِ عليٍّ باشا وجيشِه المصريِّ.

فاستعانت به فى إخماد هـذه الثورةِ ، وإطفاء نيرانِ تلك الفتنةِ ، فلَبَّى الدعوةَ وأَمَّرَ على الجيش المصريِّ القائدَ المُظَفَّرَ ابنَـهُ إبرهيمَ باشا ، وسـيَّرَهُ فى أسطولٍ بحريٍّ مِصريٍّ ، فمضى هذا البطلُ الكبيرُ على رأس الجنودِ المِصريين البواسلِ ، تَشُقُّ بهم السفنُ عُبَابَ البحرِ نَحْوَ بلادِ اليونانِ ، وما هو إلاَّ أَن تلاقى الجيشان ، ودارت رَحَى القتالِ ، ونصر الله المصريين نصراً عزيزاً ، فاستولى إبرهيم باشا ، على حصون اليونانِ ومعاقلهم ، بعد أن شتت شملَهم ، وسَبَى وغَنِمَ منهم شيئاً كثيراً ، وما كاد ينتشرُ خَبَرُ هزيمةِ اليونانيين فى أُورُبَّـةَ حتى أقبلت أساطيلُها ، وجيوشُها لحمايةِ اليونان ، وإرغامِ الدولةِ العثمانيةِ على تسريحِ الجيش المصريِّ ، فعاد إبرهيمُ باشا ، بعد أن كتب بالسيف ، أَوَّلَ سطرٍ من سطورِ تاريخِ مصرَ الحديث .

ولما رأى محمدُ عليٍّ باشا ، أن كثيراً من المصريين يَفِرُّونَ من وجه الإصلاح إلى بلاد سُورِيَّـةَ ، وأَنَّ وُلاتَهَا كانوا يُؤْوُون الفَارِّين حِقْداً على هـذا البطلِ ، خافَ محمدُ عليٍّ أن يقلَّ عَدَدُ السكانِ ، بعد أن نَيَّفَ عددُ الفارين عَلَى خمسةَ عشرَ أَلْفاً ، فأَعَدَّ

جيشاً مصرياً جراراً تحتَ إمْرَةِ إبرهيمَ باشا وسليمانَ باشا الفرنساويّ ، وحارب وُلاَةَ سُوريةَ وكبارَ قوادِ الدولة العليةِ فى تلك البـلاد ، وهزمهم هزائمَ منكرةً ، لا يزالُ يرِنُّ صداها فى آذان العالم ، وليست حروبُه حينَ فتح السودانَ بأَقلَّ أهميةً من الحروب السالفةِ ، لعلك تدركُ بعد ذلك أنه باذِرٌ بذورَ الشجاعةِ فى قلوب المصريين ، وأن البلادَ بلغتْ فى عهده من القوة والمَنَعَةِ والرَّخاء والنظامِ مبلغاً كبيراً ، حتى ساغ له أن يُحاربَ أقوى الجيوش فى تلك الأيام ، وأنَّ دولَ العالِم صِرْنَ يحسبْنَ للمصريين حساباً بعـد انتصارهم فى تلك المواقعِ العظيمة ، وأَنَّ الفضلَ فى كل ذلك يرجع للقائد الأعظمِ والفاتحِ الكبيرِ محمدِ عليّ باشا .

(٣٧)
قلعة الجبل

إلى الجنوب الشرقيّ من مدينة القاهرةِ وفى سفح جبل المقطمِ أنشأ السلطانُ يوسفُ صلاحُ الدين مؤسسُ الدولةِ الأيوبيةِ فى

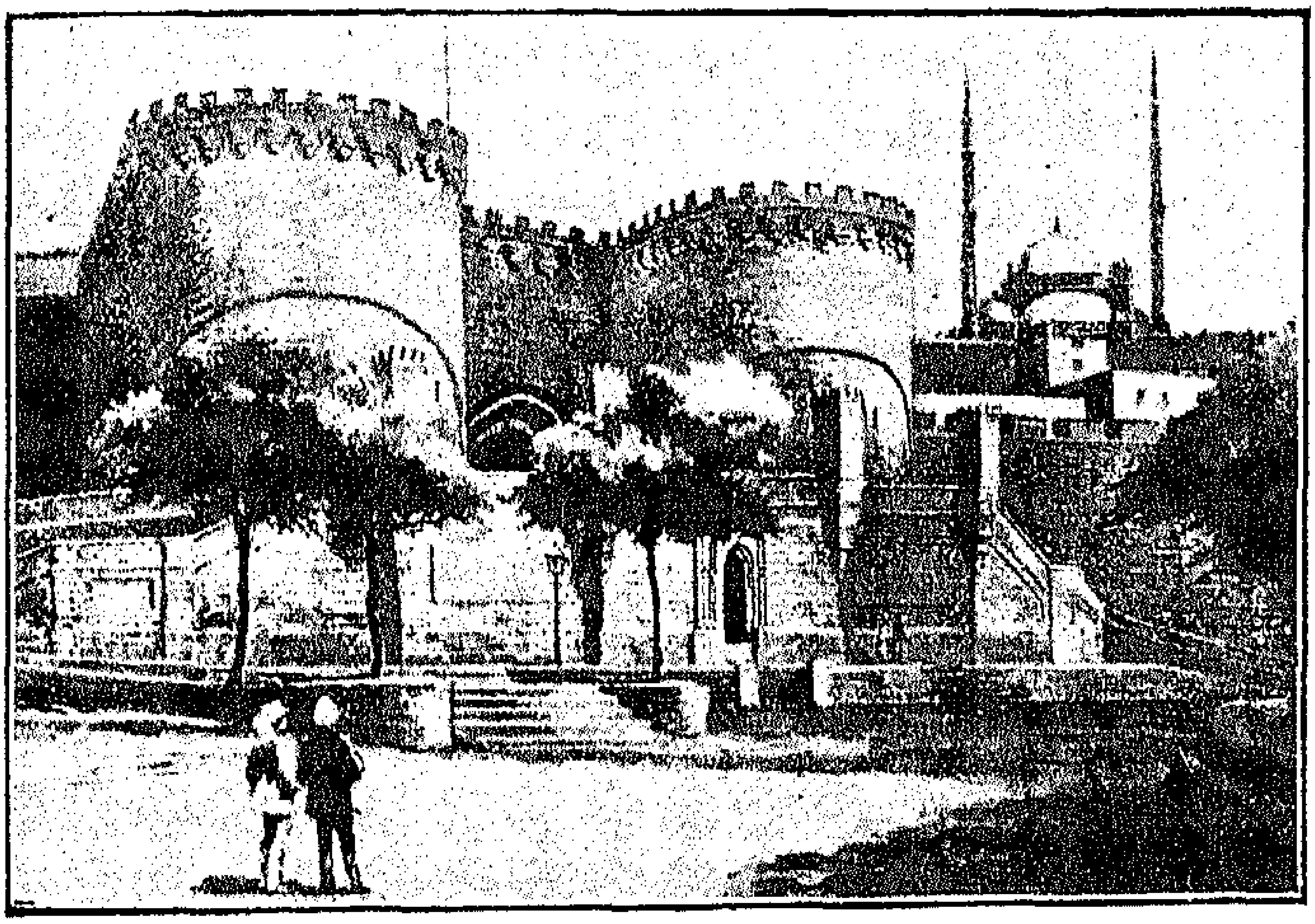

القلعـــة

مصرَ قلعةً شاهقةَ البنيانِ، منيعةَ الأركانِ، ليتخذَها هو وخلفاؤه مقرًّا لمُلْكِهم، ومسكنًا لأسراتِهم، وليَعتصموا بها إذا أُريدوا بسوء. ولقد ظلت هذه القلعةُ حِصْنَ الدولتين الأيوبيةِ والمماليكِ

الحصينَ ، ورُكْنَهُما الركينَ . وكثيراً ما زاد ملوكهُما فى بنائها ومعاقِلِها . ثم طاف بها طائفُ العفَاءِ والإقْواءِ أيامَ حُكْمِ العثمانيين وتداعت أركانُها ، وَعَبِثَتْ بها أيْدِى البِلَى حتى وَلِىَ مصرَ مُوجِدُها محمدُ علىٍّ باشا ، وأراد أن يتخذَ له ديوانًا يجعلُه مَسْكَنَ أُسْرَتِهِ ، ومقرَّ ولايتهِ ، يختلفُ اليهِ حكامُ البلادِ ونوَّابُها ، ومدبِّرُو شئونِها فلم يجدْ مكانًا أرفعَ ، ولا حِصْنًا أمنعَ ، من تلك البقعةِ التى وضع أساسَها رأسُ الدولةِ الأيوبيةِ ، فأمر فَجُدِّدَ بناؤها ، وشُيِّدَتْ فيها القصورُ الفخمةُ ، والمكاتبُ البديعةُ ، وأُنْشِئَتِ الحدائقُ الغنَّاءِ وجعلها مقرًّا لولايته مدةَ حُكْمِهِ ، ولعلَّ موقعَها هو الذى ساعده عَلَى الفتكِ بالمماليك ، حتى أراحَ منهم البلادَ والعبادَ . وإن شئت أن ترى أبدعَ أثرٍ إسلامىٍّ دينىٍّ ، فذاك جامعُ محمدِ علىٍّ باشا ، الذى أنشأه فى قلعة الجبل ، عَلَى هيئة المساجدِ فى الآستانةِ ، وطَلَى حيطانَهُ وسَقْفَهُ بالذهب الخالصِ . وفرشه بغالى الرِّياشِ . وجعل له مئذنتين عظيمتين يراهما الإنسانُ من أى جهةٍ من جهاتِ القاهرةِ .

وبنى لنفسهِ قبراً فى هذا المسجد ، وأوصى أن يُدْفَنَ فيهِ بعد

موتِه. وهكذا تراه جمع فى مكانٍ واحد، بين عظمةِ المُلْكِ وأُبَّهَةِ السلطانِ، وبين رَوْعَةِ الموتِ وخَوْفِ المَلِكِ الدَّيَّانِ

ولَّى المصريون وجوهَهُم شَطْرَ القلعةِ فى حياةِ هذا البطل، يستدِرُّون خيرَها، ويستمطرون برَّها، ويتلقَّوْنَ أمْرَها. ويفتدون بأرواحهم مُجَدِّدَ عِزَّها، ويسألون ربَّهم أن يُمِدَّه بنصرٍ من عنده، حتى يُخَلِّصَ بلادَهم من رقِّها، فلما أنْ صار عرينُ الأسدِ ومصدرُ الحكمِ، ومنبعُ الأمرِ والنهى، ضريحًا لِرُفَاتِ المصلحِ الكبيرَ ومَثْوَى لجسمه الشريفِ، لم يحولِ المصريون وجوهَهم عن القلعةِ بل وقفوا بين يديها، وشخصوا بأبصارهم إليها، ورفعوا أيديَهم إلى السماء خاشعين خاضعين، وسألوا الله سبحانه وتعالى أن يُمْطِرَ هذا القبرَ الشريفَ شآبيبَ رحمتِهِ ويُسْكِنَ صاحِبَهُ فسيحَ جنتِهِ . . . . .

ولا يزالون يستمطرون له الرِّضوانَ، ويتوسلون إلى الله تعالى بخير الأنبياء، أن يحفظَ البيتَ المحمديَّ العلويَّ، ويُوَفِّقَ ملوكَهُ وينصرَهُم عَلَى أعدائهم نصراً عزيزاً

(٣٨)

عَظَمَةُ محمد على باشا

إنَّ الكِبَارَ من الأمو ... رِ تنالُها الهِمَمُ الكِبَارُ

لم يكنْ لأبيهِ عرشٌ مسلوبٌ فينهضَ لاسترداده ، ولا مُلْكٌ مُغتصبٌ فيقومَ للثأرِ من الغاصبين ، ما هذه القوةُ فى مَظِنَّةِ الضَّعْفِ ؟ ما هذا الملكُ الواسعُ فى مرتَعِ الفقرِ المُدْقِعِ ؟ تلك النفسُ الكبيرةُ ، والهمةُ العظيمةُ ، والنظرُ البعيدُ ، وحبُّ المعالِي وما إلى ذلك من صفاتِ العظماء ، جَعَلْنَهُ يستسهلُ كلَّ صعبٍ ، ويستعذبُ كلَّ مُرٍّ . ويستنكرُ على الملوكِ استئثارَهم بالملكِ ، وعلى الأغنياء احتكارَهم للمالِ ، فشبَّ معتمداً على نفسِهِ ، غيرَ قانعٍ بما يقنعُ به أمثالُه الأيتامُ والفقراء ، يُلقِى بنفسه فى المآزق الضيقةِ ويُغامِرُ بها فى الخطوب الشديدةِ ، ويَلْقَى الحوادثَ بصدرٍ رَحْبٍ وجَنَانٍ ثابتٍ ، وثغرٍ باسمٍ ، رَاضَ نفسَه على احتمالِ المكارهِ ، وأخذها بالصبرِ ، والتجلدِ عند الملماتِ ، وتحلَّى بصفاتِ الزُّعماء والمصلحين ، فالبطولةُ ، والجرأةُ ، والصبرُ ، والعدلُ ، وحُسْنُ

السياسةِ ، وبُعْدُ النظرِ ، من أخصّ صفاته ، أليست تتجلّى لك بطولتُه فى وقائعه الحربيةِ جُنديًّا وواليًا ؟ ألست تُحِسُّ جرأته وإقدامَه فى مُنْشَآتِهِ العظيمةِ فى مصرَ ، وفى حروبه العديدةِ ، وفى مواقفِه الكثيرةِ ، التى خَلَقَتْهُ الدولةُ العليـةُ فيها ، .وهو لا يزدادُ إلاَّ ثَبَاتًا ورسُوخًا ؟ أَلَسْتَ ترى صبرَه وتجلُّدَه وقد وقفتْ فى وجهه الصِّعَابُ ، واعترضتهُ العوائقُ ، فاجتازها وتخطاها ؟ أليس العدلُ يتجلّى فى أحكامه ، وفى استشارةِ أهلِ العلمِ من المصريين ؟ أليس حُسْنُ السياسةِ يبدو من خلالِ تقرُّبِه من المصريين ، وتحببِه إليهم ، منذُ وَطِئَتْ قدمُه أرضَهم ، واستعانَتِه ببعضِ العصاةِ من جنده عَلَى البعض ، حتى خلا له وَجْهُ البلادِ ، فأنشأ فيها ما شاء من مرافقِ الحياةِ ؟ أليس بُعْدُ النظرِ واضحًا فى كل أدوارِ حياتِهِ ، فما همَّ بأمرٍ إلاَّ كان حَسَنَ العاقبةِ ؟ ألست تراه بعد كلِّ ذلك مَلِـكًا عظِيمًا ، نالَ مُلْـكًا عظيمًا ، بأَصالةِ رأيِهِ وحدِّ سيفِهِ ؟

أتَرَى أن مصرَ طال فيهـا أَمَدُ الظلمِ ، وانتشرَ فيها ظِلُّ الاستعباد ، وجفّتْ مِياهُ الحياةِ فى جسمِها ، فنظر اللهُ إليها نَظَرَ

عطفٍ وحنانٍ ، فأرسل إليها هذا المَلاكَ الطاهرَ ، ليخرجَها من الظلُماتِ إلى النور ، ويُوصِيَ بها أبناءه وأحفادَه من بعده ليكونوا لها خيرَ الحاكمين ؟ أم أن هذا البطلَ الكبيرَ ، تحلّى بصفات العَظَمَةِ ، وكَسَرَ السِّلْسِلَةَ المألوفةَ من مَسْكَنَةِ الأيتام وذُلِّهم ، وعرف لنفسه قيمتَها ، فخطب لها المعالِيَ وأغلَى مهرَها ، وأخذ بيدِ شعبٍ مستضْعَفٍ ، فكافأه اللهُ هو وسُلاَلَتَهُ الطاهرةَ بهذا المُلْكِ العظيم ؟ اللهم إن كان هذا أو ذاك ، فإن مصرَ قد سَعِدَت بعد الشقاء ، وقَوِيَتْ بعد الضعفِ ، وجرت فى مَيْدان المدنيةِ والعلم شوطًا بعيدًا ، بفضل أمجادِ هذه الأسرةِ المباركةِ . والشجرةِ الطيبةِ ، جزاهم اللهُ أجْرَ ما كانوا يعملون .

---

(٣٩)

قَسْوَةَ محمد على باشا

فَقَسَا ليزدجروا ومَنْ يكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحيانا عَلَى من يَرْحَمُ

قضى المصريون عدةَ قرونٍ تحتَ سيطرةِ المماليكِ والعثمانيين، وهؤلاء كما علمتَ كانوا شرَّ الحاكمين ، فقد حالوا بين الشعبِ ونورِ العلم بسدٍّ منيع ، حتى أَلِفَ الناسُ الجهلَ ، واستحبُّوا العمَى عَلَى الهُدَى ، وأَرْهقوه بالمُكوسِ التى كانوا يَضربُونها عَلَى زراعته وتجارته حتى كَرِهَ العملَ وسَئِمَ الحياةَ ، وصار لا يَحْرُثُ الأرضَ، ولا يَرْعَى الماشيةَ، إلا طاعةً لأمرِ الحُكَّامِ ، وخوفاً من بأسهم وسلطانهم ، وأحاطوا البلادَ بِسِياجٍ من الجنود الأجنبية ، التى كانت تسومُ المصريين الذلَّ والعذابَ ، حتى تربَّى الشعبُ عَلَى الخوفِ والجبنِ، وَكَرِهَ الجُنُودَ ومَنْ عَلَى شاكِلَتِهِم ، تسلَّمَ البطلُ الكبيرُ محمدُ عليٍّ باشا مصرَ وتلك حالُها عِلماً وعملاً وأخلاقاً ، فلما أراد أن يُرَقِّيَها ، وجد أهلَها يَفِرُّون من وجهِ الإصلاحِ فِرَاراً ، فتح المدارسَ ودعا الناسَ إلى تعليم أبنائهم فيها فنفروا من ذلك ،

وَشَدُّوا شُجاعاً مَنْ تمكَّنَ من الهَرَبِ بابْنِهِ حتى لا يتعلمَ، فكان طبيعياً أن يقْسُوَ عليهم القسوةَ كلَّها، حتى يعلموا أبناءهم ما ينفعهم في معاشِهم ومَعَادِهم .

دعاهم إلى حَفْرِ الجداولِ، وإنشاءِ القناطرِ والقنواتِ، ليتيسرَ لهم إرواءُ زرعهم، واستغلالُ أرضِهم، فهجروا الديارَ ولاذُوا بالفِرَارِ، فكان معقولاً أن يحمِلَهم عَلَى إنشاء تلك المُنْشَآتِ بالقوة، ويعاقبَ العاصين منهم أشدَّ العقابِ .

جلب بذورَ النباتات النافعةِ، كالقطنِ وغيره، وتقدم إليهم أن يزرعوها، فما أذعنوا لأمره إلا بعد الضربِ والإيذاءِ .

أراد أن يُرِيحَ البلادَ من الجنود الأجانب، وأن يجعلَ لها جيشاً منها، يذودُ عن حِمَاهَا وَيثبِّتُ أركانَ استقلالِها، فدعا الشبابَ إلى ذلك، ففضلوا الموتَ في ظِلِّ الجبنِ، عَلَى الحياة في ظلِّ الشرفِ والفخارِ، فكان مألوفاً جداً أن يختطفَ الشُّبَّانَ من بين أهليهم، ويؤلفَ منهم جيشاً مصريًّا، وهكذا ظل يسوقُ المصريين سَوْقاً إلى منابع السعادةِ، وَيُرْغِمُهُم عَلَى ولوجِ أبوابِ الحياةِ الجديدةِ إرغاماً، وهكذا يمكن أن يُقَالَ إن المصريين أُرْغِمُوا

عَلَى أن يكونوا سُعَدَاء ، ولا يزالُ عامةُ المصريين يتناقلون أخبارَ شِدَّةِ محمدٍ عليّ باشا ، والمغفور له إسماعيلَ باشا وقسوتِهما ، ويقولون إن أيامَهما كانت مسارحَ للظلم والاستبداد ، ولو عَلِمَ هؤلاء الجاهلون ، أنهم أُرغِموا عَلَى أن يَبْنُوا لأبنائهم وأحفادهم بيوتاً من المجدِ شامخةً ، وأن هؤلاء الأبناء والأحفادَ يتمتعون الآنَ بما خلَّفَ الآباء ، وأن القسوةَ والشدةَ قد زالتا ، ولكنَّ ثمارَهما لم تزلْ ولن تزولَ ، لو علموا ذلك لتَوَاصَوْا بالشكرِ والدعاء ، لهذه الأسرةِ المباركةِ ولجئوا إلى الله أن يُبقيَها ذُخْراً للبلاد ، ومَلَاذاً للعبادِ .

(٤٠)
البر بالإنسانية

إذا أنت رأيتَ رجلاً ألقى بنفسه فى البحر لإنقاذ غريقٍ، ثم سبح فى الماء ودفع بهذا الغريق إلى الشاطئ حتى نجا من مخالب الموتِ، امتلأتْ نفسُك إعجاباً ببسالته ورقّةِ قلبهِ، وحَمِدْتَ له هذا الصنيعَ، ورسمتَ صورتَه فى الصحفِ، وذكرتَ للناس فضلَ هذا البطلِ العظيم.

وإذا أنتَ رأيتَ رجلاً أقبل عَلَى إنسان مُغْمًى عليه، وحلّ أَزْرَارَهُ، وخلع نعليه، ودغدغ أصابعَه، وحَمَلَهُ إلى مستشفى قريبٍ، كِلْتَ له المدائحَ كَيْلاً، وعَدَدْتَه من نصراء الإنسانية، وملأتَ بصورته وذِكْرِهِ الأرضَ طُرًّا.

وإذا أنتَ رأيتَ رِجَالاً خاطروا بأنفسهم، وخاضوا غِمَارَ نارٍ اشتعلتْ فى دارٍ، وأزهقتْ أرواحَ سكانِها، ثم خرجوا يحملُ كلُّ منهم فرداً من أفرادِ الأسرةِ، ويُسْعِفُه بالعلاج، امتلأ قلبُك بحبِّ هؤلاء الرجالِ وإجلالهم، وقلتَ ملائكةٌ أطهارٌ، وأذعتَ فى العالَمِين بُطُولَتَهم، ودعوتَ الناس إلى الإشادةِ بذكرِهم، والنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِهم.

وإذا أنت رأيت إنساناً أعملَ فِكْرَهُ حتى اخترع مخترَعاً جديداً، خَدَمَ به الانسانية، ونَشَرَ المدينة، وأراحَ الناسَ من عناء كبير، قلَّدْتَهُ من المدح القلائدَ، ومن الثناء السُّموطَ.

ولعل ما نقرأ كلَّ يوم من الروايات والأحاديث، ونرى من الصُّوَرِ والرسوم، ينهضُ دليلاً عَلَى صدق ما تقدمَ.

إذا كان إعجابُ الناس وتمجيدُهم لمن أنقذ غريقاً أو أطفأ حريقاً أو وَاسَى مريضاً أو اخترع مُخْتَرَعاً قد بلغ هذا الحدَّ، فما يكونُ إعجابُهم بمن أنقذ أُمةً وأحْيَى أجيالاً ؟.

ألست ترى محمدَ عليّ باشا وأبناءه وأحفاده الأكرمين، مُنقذين لمصرَ من الفناء ؟. ألست تراهم مُخْرِجيها من الظلماتِ إلى النورِ ؟ أليسوا معلميها بعد الجهل ؟ أليسوا باعثيها من قبرها وناشريها من رَمْسِها ؟ أليس القطنُ المصرىُّ ولا غِنَى للعالَم عنه من غرْسِ محمدِ عليّ باشا ؟ أليس من مَضَوْا منهم جديرين منا بالذكر للفضلِ والعرفانِ للجميل ؟ أليس وارثُ مُلْكِهِم حقيقاً منا بالحبّ الخالصِ، والوُدّ الصميم خليقاً منا بالطاعة والإذعان ؟ ما أجدر كلّ مصرىٍّ أن يملأ بحبه فؤادَه ويتوجَّه إلى الله بقلبٍ خالصٍ راجياً أن يَمُدَّ فى أجله، ويُمتعَ الأمةَ المصريةَ ببقائه، وبقاء وليِّ عهده الكريمِ

إسماعيل باشا

(٤١)

المغفور له إسماعيل باشا

فى الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٨٣٠ وُلِدَ بمصرَ هذا البطلُ الكبيرُ إسماعيلُ باشا بنُ إبرهيمَ باشا ابنِ محمدِ عليّ باشا، وَنَمَى فى حِجْرِ العزّ وترعرع فى أحضانِ المُلْكِ ، وتعلم اللغاتِ ومبادئَ الرياضياتِ، في مدرسةِ الأمراء التى أنشأها جدُّه لأبنائه وأبناء أبنائه، فلما بلغ الرابعةَ عشرةَ من عُمُرِهِ ، أُرْسِلَ إلى ڤينَّةَ عاصمةِ النمسا ، وظل فيها سنتين يتعلّمُ العلومَ الحديثةَ من كِبارِ المرَبين، ثم انتقل إلى باريسَ ، وانتظم فى سلك المدرسة المصرية التى كان قد أنشأها جدُّه هناك لتعليم أبناء الأمراء وَسَراةِ الأمةِ، وهناك فاق الأقرانَ، ونبغ فى الرسم ، والعلومِ الهندسية نبوغاً عظيماً، ثم جاء إلى مصرَ، وقد اكتملَ عقلُه، ففوجِئَ بوفاة أبيه البطلِ المِغْوَارِ إبرهيمَ باشا ، فاضْطُرَّ لإدارة مزارعه وضِياعِهِ الواسعةِ التى وَرِثَها عن أبيه بنفسه ، ثم فوجِئَ بوفاةِ جدِّه العظيم محمدِ عليّ باشا فنال منه الحزنُ كلَّ مَنَالٍ ، ثم سافر إلى الآستانةِ

وأقام بها ، وقلّدته الدولةُ العليةُ مَنْصِباً عالياً ، حتى إذا بلغه خبر وفاةِ ابنِ عمِّهِ عباسٍ الأول والي مصرَ وتَوْلِيةِ عمِّهِ محمدٍ سعيد باشا عاد من الآستانةِ ، وكان لعمه خيرَ مُعين ، وتولّى كثيراً من المناصب الإدارية والعسكرية فأظهر فيها براعةً نادرةً ، واكتسب خِبْرَةً عظيمةً ، ودرايةً كبيرةً ، وعَرَفَ عِلَلَ مصرَ وأدواءها ، ونَمَى في نفسه حبُّه لإصلاحها ، حتى إذا أراد اللهُ سبحانه وتعالى أن تَبْزُغَ فيها شمسُ المدنيةِ ، ويَسْطَعَ في سمائها نجمُ الحضارةِ ، بعث فيها هذا المَلاكَ الطاهرَ ، فجلس على أريكتها في السابعَ عشرَ من شهر يناير سنة ١٨٦٣ بعد وفاةِ عمِّهِ المرحومِ محمدٍ سعيد باشا . قبض على زمامها وهو ذلك الحازمُ الذي خَرَّجَتْهُ الحوادثُ ، وحَنَّكَتْهُ التجاربُ ، وعلَّمَتْه المناصبُ ، ولقد كان له من شدة ذكائه ، وصدقِ نَظَرِه ، وسَعَةِ اطلاعِهِ ، وحِرْصِهِ على محاكاةِ جده الأكبرِ خيرُ معينٍ في كل ما قام به من الإصلاح في البلاد ، وكان كلما ذكر أنه ابنُ إبرهيمَ باشا بطلِ الأبطالِ وقائدِ الجيوشِ في القارات الثلاثِ ، وأنه حفيدُ الغازي الأعظمِ محمدِ عليٍّ باشا ذي التاريخ العظيم ، والصيت الذائع ، والهيبة العظيمة في نفوس ملوكِ الدنيا ، اتقد في نفسه حبُّ العظَمَةِ ،

والقيام بعظائم الأمور ، وبهذه النَّزْعَةِ الشريفة ، سار بمصرَ فى طريق الحضارةِ شوطاً بعيداً ، ومَدَّنها تَمْدِيناً جعل أبناءها وذُرِّيَّاتِهِم لا يَنْسَوْنَ فضلَه ، ولا يُنكرون جميلَه ، ما بَقِيَتْ مِصْرُ ، على أن ما قام به من الإصلاح فيها طَفْرَةً ، اضطره إلى مَدِّ يَدِ الاقتراض من الدول ، حتى ناءت البلادُ بِحِمْلِ الديون فى آخر أيامه .

(٤٢)

سكة الحديد والبرق والبريد

قبل أن أتحدث إليك فى تاريخ سكة الحديد المصرية ، ألجأ الى الله سبحانه وتعالى وأسأله أن يجزى مخترع هذه القطر عن الإنسانية خيراً ، فإنه أراح العباد ، ووصل بين البلاد ، وقرب البعيد ، وسهل كل سبيل ، أما سكة الحديد المصرية ، فإن العهد فى إنشائها يرجع إلى ثالث ملوك هذه الأسرة الأمير عباس باشا الأول الذى فكر فى انشاء أول خط حديدى فى مصر بل فى الأمم الشرقية جميعاً ، بين القاهرة والاسكندرية ، ولكنه لم يتم إلا فى عهد خلفه المرحوم محمد سعيد باشا ، الذى عنى بمد بعض الخطوط الحديدية ، والأسلاك البرقيـة ، بين بعض العواصم والحواضر ، فلما جاء المصلح العظيم . المغفور له إسماعيل باشا ، وكان قد كتب على نفسه تمدين مصر وتحضيرها ، مد الخطوط الحديدية فى جميع أرجاء الوادى ، وجلب القاطرات والعجلات والقضبان من أوربـة ، وأنشأ المعامل الخشبية والحديدية فى

القاهرة ، وحَشَرَ فيها الصُّنّاعَ ليتعلموا كلَّ ما يتعلقُ بسكة الحديد ومدَّ فى كل بلادِ القُطْرِ الأسلاكَ البرقيةَ ، وفتح المكاتِبَ البريديةَ وأنشأ كثيراً من الطرق الزراعيـة ، وهكذا انتشرت طُرُق المواصلاتِ فى جسم البلاد ، وسَهُلَ نَقلُ المتاجرِ ، وتعارَفَ الناسُ وتآلَفُوا ، وسَرَتْ فى مصرَ رُوحُ نشاط جديدةٌ ولا تزالُ هذه السككُ تنتشرُ فى المدن والقرى ، وتتشعَّبُ فى الديار وتمتدُّ فى أطراف البلاد ، وتَدِرُّ على بيت المال الخيرَ العميمَ ، والربحَ الجسيمَ ، ولقد ساعدتْ بعضُ الشركات الحكومةَ المصريةَ فى إنشاء كثيرٍ من الخطوطِ الحديدية فى بعض جهاتِ القُطْرِ ، فعاد ذلك على السكان بالراحةِ والسعادةِ ، وعلى أرباب الشركاتِ بالأرباحِ العظيمةِ ، وتُعَـدُّ الآنَ طُرُقُ مواصلاتِ القطرِ المصريِّ كافيةً لترقيةِ تجارتهِ ، ولنقلِ سكانهِ وأمتعتِهم من مكانٍ إلى مكانٍ ، وهى تسيرُ بين المدائن فى مواعيـدَ ثابتةٍ ونظامٍ تامٍّ ، وقد تعلَّمَ من المصريين شبانٌ كثيرون ، تولَّى بعضُهم إدارَتَهـا ، والبعضُ التفتيشَ عليها ، ومنهم من يَمُدُّ الخطوطَ ويُصْلِحُ ما فَسَدَ منها ، ومنهم من يصنعُ عجلاتِها ومقاعِدَها ، وعلى الجملة يتولَّى أمْرَها

مصريون أكفاء ، وتُعْنَى حكومةُ جلالةِ مليكِنا المعظمِ أحمدَ فؤاد الأول بإعداد العاملين المُجَرَّبين ، فتبعثُ بهم إلى معاملِ أَوْرُبَّةَ ومصانِعِها ، فيزدادون فيها عِلماً وعَملًا ، ثم يُوَلَّوْنَ المناصبَ العظيمةَ فى إدارةِ سكةِ الحديدِ ، بعد أن كان يُسْتعانُ فى إدارتها بكثيرٍ من الأوْرُبِّيِّينَ ، جعلَ اللهُ أيامَ مليكِنا أيامَ رَخَاءٍ وسعادةٍ ، ومدَّ لنا وللبلادِ فى عهدِه السعيدِ ، وعَصْرِه الزاهرِ .

(٤٣)

قناة السويس

حاولَ فراعنةُ مصرَ وَصْلَ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ بالبحرِ الأحمرِ فلم يُفْلِحُوا ، وزاولَ ذلك البطالسةُ فلم ينجحوا ، وتناولَهُ

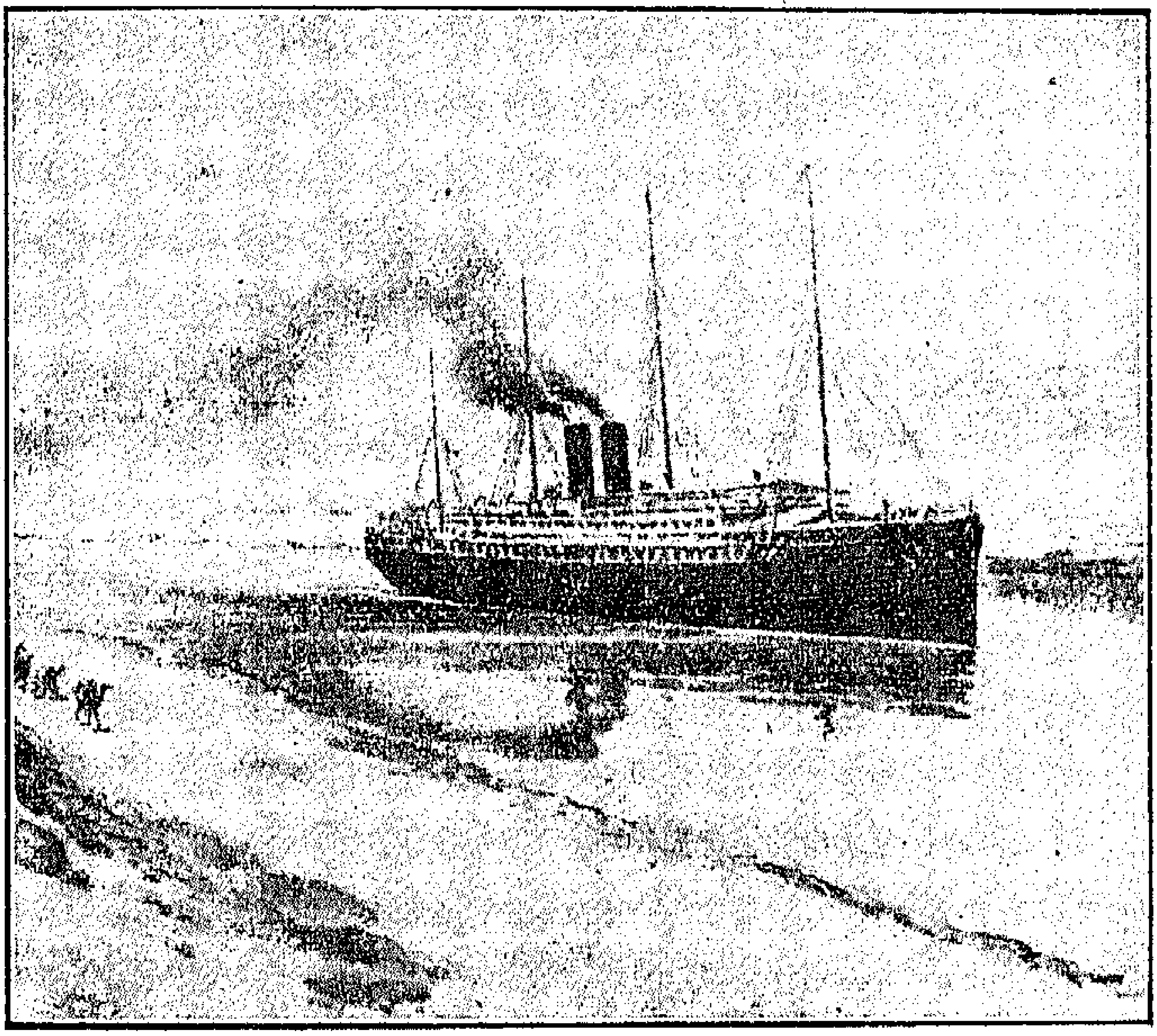

قناة السويس

القياصرةُ فلم يُوَفَّقُوا ، والكلُّ لا يبغون إلاَّ اتصالَ العالَمِ الشرقيِّ بالعالَمِ الغربيِّ ، وتقريبَ البعيدِ وتيسيرَ العسيرِ ، حتى جلس على

أريكةِ مصرَ الأميرُ محمدُ سعيدِ باشا الذى كانت بينه وبين المهندس الفرنساوىّ الكبيرِ دى لسبس صداقةٌ موثّقةُ العُرَا . فقد كان هذا المهندسُ أستاذاً ورفيقاً لسعيد فى أيامِ نشأتِهِ فى عهدِ والدِهِ القائدِ العظيمِ . وكان الفرنسيون منذُ احتلالِهم لمصرَ مولَعين بحفر القناةِ ، التى كان قد عزم على انشائها نابليون بونابرت ، وعَهِد إلى طائفةٍ من مُهندسى حَمْلَتِهِ فى بحثِ مشروعِها ، ودَرْسِهِ ، وتدْوينِ نتيجةِ هذا البحثِ فى كتابٍ . ولكن الفرنسيين أُكْرِهوا عَلَى التخلِّى عن مصرَ كما علِمْتَ . وكان دى لِسْبس قد قرأ الكتابَ الذى أَلَّفَتْهُ اللجنةُ الفرنسيةُ بشأنِ إنشاء تلك القناةِ . فامتلأَ قلبُهُ رغبةً فى إنفاذ هذا العملِ الخطيرِ . وما زال يُمنِّى نفسَهُ بذلك . حتى وَلِىَ الأمْرَ صَديقُهُ سعيدٌ باشا . فزيّنَ له إنشاء هذه القناةِ . وأظهر له أن هذا العملَ سيكونُ خطيراً ، كثيرَ المنافعِ ، جليلَ الفوائدِ فى رَبْطِ العالمِ الشرقىِّ بالعالم الغربىّ وفى إحداثِ التآلفِ والتعارفِ بين الشعوبِ ، وأنه سيعودُ على مصرَ بالخيرِ العميمِ . وما زال به يُغْرِيه ، ويتخذُ صداقتَهُما المتينةَ وسيلةً لنجاحِ سَعْيِهِ حتى رَضِىَ بتحقيقِ ما عجز عن تحقيقه الفراعنةُ . والبطالسةُ ، والقياصرةُ .

وعَهِدَ إلى هذا المهندسِ بإنفاذِ هذا المشروعِ على نفقةِ شركةٍ دوليةٍ ظَفِرتْ من المرحوم سعيد بعهودٍ ناءت بها مِصرُ وتعرَّضَ إستقلالها وحريتُها لخطرٍ عظيمٍ ، لولا أنْ تداركَ اللهُ الكنانةَ قبل أن يتمّ إنشاء تلك القناةِ ، بِمُحْيي مجدِ مصرَ المرحوم إسماعيلَ باشا ، فقد هَالَهُ ما رأى من المظالم التى تتهددُ استقلالَ بلادهِ ، وتنصبُّ على رءوسِ العمالِ المصريين ، الذين أُخِذُوا قوّةً واقتداراً وأُرغِموا على حفرِ تلك القناةِ ، وغَضِبَ لبلاده غضبةً مُضَرِيَّةً ، كانت نتيجتُها إلْغاء كثيرٍ من العهودِ القاسيةِ ، التى تعهّدَ بها سَلَفُهُ . ثم والتْ الشركةُ عَمَلَهَا ، حتى وصلت بين البحرين ، وربَطَتْ بين العالَمَيْن ، وفى سنة ١٨٦٩ وفى عَهْدِ المغفورِ له إسماعيلَ باشا ، احتُفِلَ بافتتاحِ هذه القنـاةِ احتفالٌ لم تَشهدِ الأرْضُ مثلهُ منذُ خُلِقَتْ ، حضرهُ ملوكُ الدنيا ، وعواهِلُها ، وعلماؤها ، ومفكروها

وإنّ المُـدُنَ والقُرى الشرقية ، وما حولَ القناةِ من حياةٍ ونشاطٍ كلُّ ذلك أثرٌ من آثارها . وهاهى ذى لا تزالُ تروحُ فيها السفنُ وتغدو بسلام

(٤٤)

حديثُ النيل

خلقني اللهُ يوم خَلَقَ الجبالَ والسمواتِ والارضين ، ومنحني حياةً سعيدةً وعيشاً رغيداً آلافَ السنين ، تَهْطِلُ الأمطارُ في المناطقِ الاستوائيةِ ، وعَلَى الجبالِ الحبشيةِ ، ثم تنسابُ تلك المياهُ الهاطلةُ في مَجَارٍ عديدةٍ ، حتى تنصبَّ في مَجْرَايَ ، فأَحْمِلَها نحوَ الشمالِ ، وأسيرَ في الوادي ، مُختالاً بين حقولهِ وروابيه ، اختيالَ المَلِكِ الأعظمِ ، بين جُنْدِه وحاشِيَتِهِ ، حتى أُلقِيَ بمائِي في البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ، تعنو لعظمتي الوجوهُ ، وتَذِلُّ لعزتي الرقابُ ، ليس لكائنٍ مَنْ كان سلطانٌ عليَّ ، ولقد مَرَّ بي عصرٌ من العصور اتخذني فيه سكانُ واديَّ معبوداً ، يقدمون بين يديَّ القرابين ، إذا غضبتُ عليهم انخفض مائي حتى لا يرتفعَ إلى المزارعِ ، فيَلْبَسُون الحِدادَ ، ويُنادُون بالوَيْلِ والثُّبورِ ، ويَحْسَبُون هبوطَ مائي لجنايةٍ جَنَوْهَا ، فيستغفرونني ويتوبون إليَّ تَوْبةً نَصُوحاً ، وإذا رَضِيتُ فاض مائي ، وسالَ عَلَى جانِبَيِ الوادِي ، وتلقَّاني السكانُ بالطبولِ

والمزاميرِ ، وقد زَفُّوا عروساً من أجملِ فتَيَاتِ مصرَ ، وجاءوا بها مَجْلُوَّةً بين أترابها من بَنَاتِ السَّرَاةِ ، وسار فى مَوْكِبِ الزُّفافِ فِرْعَوْنُ وجنودُه ، ورَكِبُوا جميعاً سُفُناً تتهادَى فى عُبَابى ، وقد زُيِّنَتْ بأعلامِ الفرحِ والسرُورِ ، وانثالت جموعُ الوادى إلى ضِفَّتَىَّ فالرجالُ عَلَى الحِفَافَيْنِ يُصَفِّقون ، والنساءُ يزغرِدْنَ ، وسِرْبُ السفنِ يختالُ فى عَرْضى اختيالاً ، حتى إذا انتظمتِ المواكبُ ، وَجَرَى القضاءُ لغايتِهِ ، فَغَرْتُ فَمِى ، فألْقَوْا فيـهِ العروسَ طيبةً نفْسُها ونفوسُهم ، وهكذا عِشتُ حُرًّا طليقاً ، أمنحُ إذا شئت ، وأمنعُ متى شئت ، لم يَنَلْ بُنَاةُ الأهرامِ ولا الأكاسرةُ ، ولا ذو القرنين ولا القياصرةُ ، من حريتى وعزتى ، حتى إذا حكم هذا الوادىَ ملوكُ هذه الأسرةِ العلويةِ ، قَيَّدوا حريتى وسلبوا استقلالى ، وبَنَوْا فى مَجْرَاىَ السدودَ الحديديةَ ، ذاتَ الأبوابِ المتحركةِ ، فاعترضت مائى ، وجعلته يسيرُ بإرادتهم لا بإرادتى ، وها هو ذا ظهرى ، مُثْقَلٌ بها عند القناطرِ الخيريةِ وزفتى وأسيوطَ وإسنا وأسوانَ ، وطوقوا سطحَ مائى بالقناطر الحديديةِ ، التى تجتازُها القُطُرُ ، وتمرُّ عليها المشاةُ والحيوانُ والعرباتُ فى جميع نواحى.

الوادى ، وأثقلوا كاهلى بالقناطر والجسورِ بين القاهرةِ والجيزة ، وَرَمَوْنِى بالبواخر حتى ضِقْتُ بها ذَرْعاً ، وأقاموا على مساقطِ أمطارى ومنابعى مقاييسَ لمعرفةِ زيادتى أو نقصى ، بعد أن كان ذلك فى ضميرى سِرًّا لا يُذَاعُ ، وآلموا أحشائى بتلك الترعِ التى احتفروها ، وأقاموا العقباتِ فى وجهى حتى يَجْرِىَ مائى فيها ، فَيَقِلَّ خطَرِى وأمْضِيَ إلى البحر ذليلاً ، أتحاملُ على نَفْسِى ، وأَندُبُ فى العالمين حظى .

حَرَّرَملوكُ هذه الأسرةِ مصرَ وأذلُّونى، وأَغْنَوْها وأفقرونى واتخذونى أداةً لرُقِىِّ الزراعةِ والتجارةِ ، وسبيلاً للغادين والرائحين فاللهم إن كان ذلك حُبًّا فى سكانِ وادىَّ ، ورغبةً فى ترقيتهم ، فَزِدْ فى مُلْكِ هؤلاء الملوكِ ، وامْدُدْ ظِلَّ سلطانِهم ، وكن لهم فى كل أمْرٍ وَلِيًّا ونصيراً .

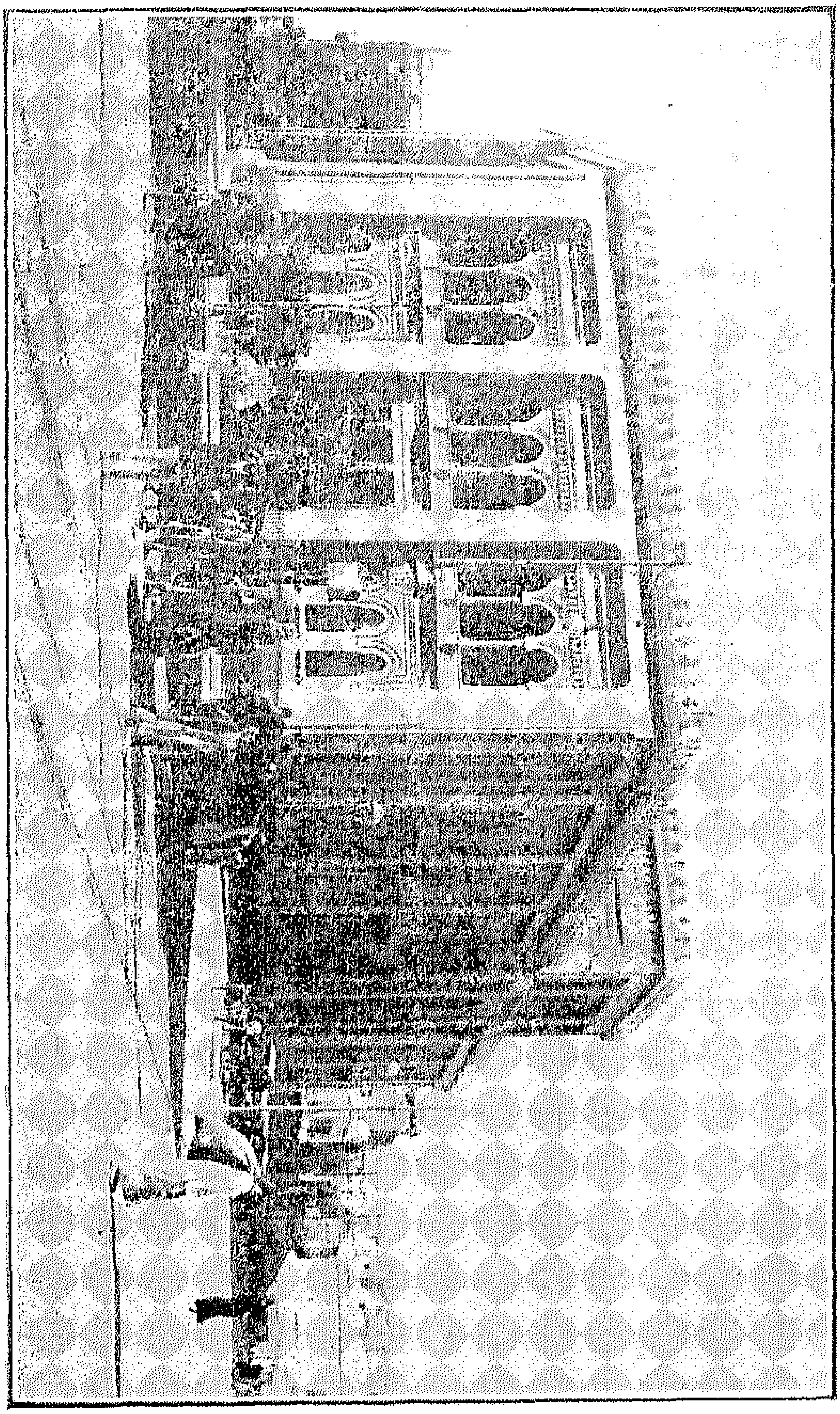

دار الكتب المصرية

(٤٥)
دار الكتب المصرية

لم يقنعْ إسماعيلُ باشا بإنشاء المدارسِ والمعاهدِ وإعدادِ المعلمين ونَشْرِ التعليمِ فى الديارِ المصريةِ . بل أرادَ أن يُسَهِّلَ لطالبي العلمِ سُبُلَ تحصيله . ووسائلَ تعلُّمِهِ ما استطاعَ الى ذلك سبيلاً ، فأنشأَ دارَ الكتبِ المصريةَ ونقلَ اليها جميعَ المكْتبَاتِ الأزهريةِ والموقوفةِ واشترى لها من ماله آلافَ الكتبِ القيمةِ . وجعل فيها المصاحفَ الأثريةَ ، والكتبَ الخطيَّةَ التى يتوارثُها الخلفُ عن السلفِ ، وعَهِدَ بإدارتها وتنظيمها إلى رجالٍ ذوى خِبْرَةٍ ، وأمرَ بإعداد الفهارسِ والمقاعِدِ فيها ، وبفتح أبوابها للقارئين والكاتبين . ولم يَمْضِ غيرُ قليلٍ حتى صارتْ تضارعُ اكبرَ مكْتبَاتِ العالمِ ، وامتلأتْ خزَائنُها بنفائسِ المؤلفاتِ العربيةِ والأعجميةِ . وتَبَارى سَراةُ الأمةِ ووجوهُها فى حبسِ الضياعِ الكبيرةِ على تلك الدارِ وأقبلَ طلابُ العلمِ من كل فجٍّ لِيَرِدُوا هذا المَنْهَلَ العظيمَ . وما زالت هذه الدارُ تنْمِي وتزيدُ ، وصيتُها يذِيعُ وينتشرُ ، حتى مَلَكَ مصرَ نصيرُ العلمِ والعلماء جلالةُ مليكنا احمد فؤاد الأول فأخذ

بِيَدِها ، ورفع شأنها وعرف لها خَطَرَها فى ترقيةِ مدارك الأمةِ ، وتيسيرِ سبيلِ العلمِ لمن يشاءون النبوغَ : وها هى ذى فى عصره الزاهرِ بالعلوم والمعارف ، تُخْرِجُ للناس كلَّ حينٍ كتاباً من أنْفَسِ ما ألَّفَ العلماء فى الأيام الخاليةِ ، على أنه قد أنشئت فى كثير من المُدُن المصريةِ فى عهده السعيد دُورٌ للكتبِ ، قام بإنشائها والإنفاقِ عليها المجالسُ البلديةُ ، وأعانها أُولُو الخيرِ وذوو البرِّ من أبناء الأمةِ ، إرضاء لله تعالى ولمليكهم الذى يَدِينُ بإحياء العلوم ونَشْرِها . وإذا أنتَ دخلتَ دارَ الكتب المصريةَ وطُفْتَ بحجراتها وخزائنها ، ومقاعِدِها ، ومعارضِها ، ومكاتبها ، وأبْهائِها ، وقَماطرها ورأيتَ ما فيها من كتبٍ قيمةٍ . ومصاحفَ ذهبيةٍ ، ونقودٍ أثريةٍ وآثارٍ تاريخيةٍ . وقد أقبل رُوّادُ العلمِ واطمأنوا فى المقاعدِ وأخذوا يقرءون ما يشاءون فى هدوء وسكونٍ لهَالَتْكَ عَظَمَةُ هذا المنظرِ وبهرَكَ جَلالُ ذلك المشهَدِ ، وأيقنتَ أنها مَعِينٌ للعلمِ لا ينْضُبُ ، ومَدَدٌ لطلابه لا ينْفَدُ ، وأنَّ منشئيها وحارسيها ، ورافعى شأنِها ، جديرون بأن يجلسوا على عروش قلوبنا ، ويستأثروا منها بأخصبِ مكانٍ للحب والتمجيد .

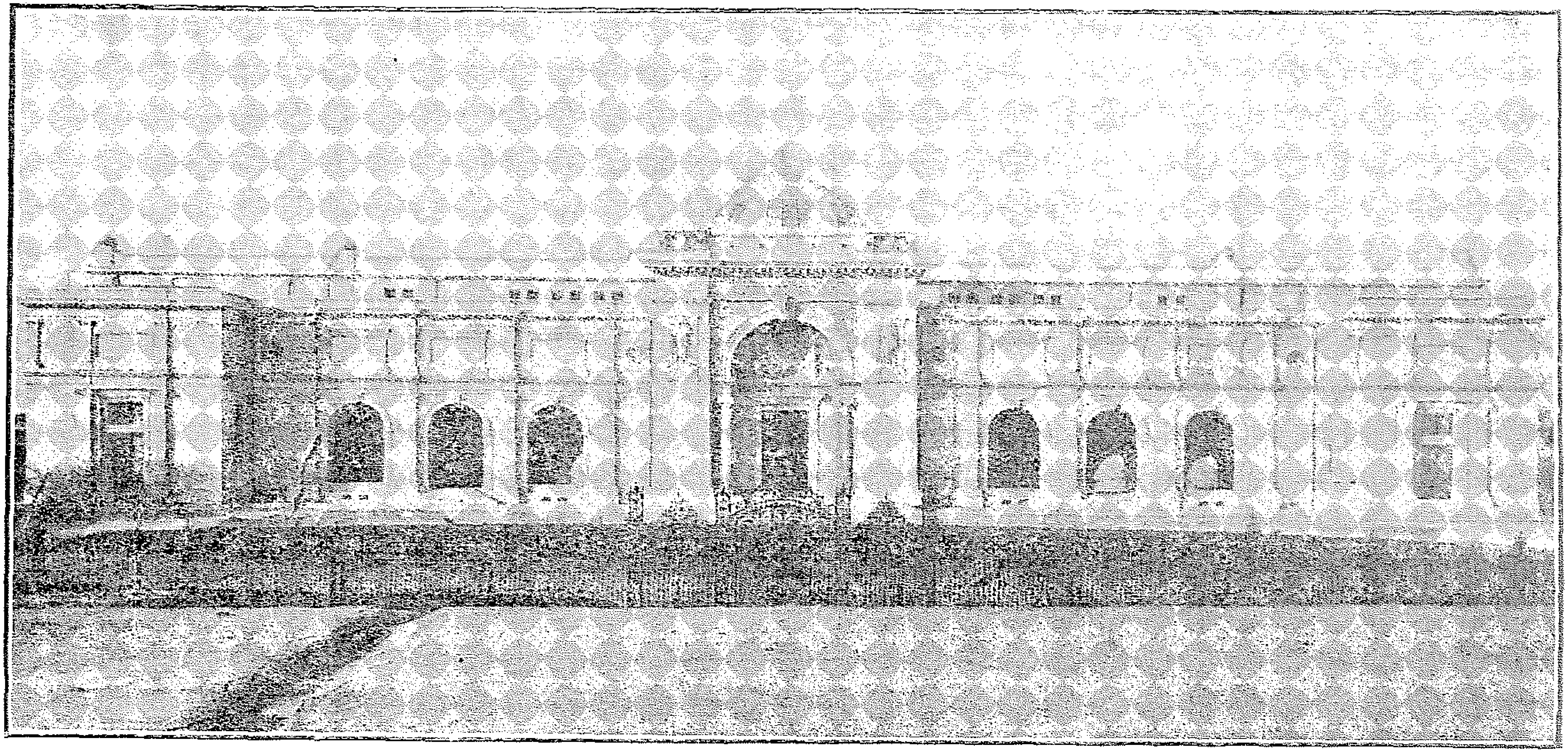

دار الآثار المصرية

(٤٦)

دَارُ الآثارِ المصرية

دُورُ الآثارِ فى الممالكِ عناوينُ فَخْرِهَا ، ودواوينُ مَجْدِهَا ، ومَعِينُ سُؤْدُدِهَا ، ومنبعُ عِزِّهَا ، وهى صحائفُ التاريخِ الخالدِ ، وكُتُبُ الذِّكْرِ القديم ، وهى دليلُ حَسَبِ الأمةِ ، وبُرْهانُ شَرَفِها ، وهى تُرَاثُ الآباءِ للأبناء ، ووَصِيَّةُ السالفين إلى الآتين ، وأىُّ أمةٍ من أممِ الأرض خلَّفَ لها الأقدمون ما خلَّفَ آباؤنا الأولون ؟ وأى شعب من شعوب العالمِ يَمُتُّ إلى أصلٍ شريفٍ ومجدٍ تليدٍ ، ومدنيةٍ قديمةٍ ، كما يَمُتُّ الشعبُ المصرىُّ إلى أصله ومجده ومدنيته ؟ ألم ترَ إلى أهرامه قد ناطحت السحابَ فى سمائهِ ، وفاخرت الجبالَ فى عَظَمَتِها ، وهى لا تزالُ سرًّا مكتوماً فى ضمير الماضى؟ وإلى مقابر ملوكه، وأجداثِ عظمائه. وقد حالت بين أجسامهم وبين البِلَى آلافَ السنين؟ وإلى معابدهم وقصورهم . وقد بَلِيَ الزمانُ ولم تَبْلَ ؟ وإلى كتاباتهم ونقوشِهم وأثاث منازِلهم وقد استعصت على حوادث الأيام ، وتقلُّباتِ

الدهور . أليس كل ذلك من مفاخرِ آبائنا ومآثر أسلافنا ؟ أليس يدلُّ على أن المدنيةَ والعِرْفانَ نَميَا فى ديارنا وآتيَا أُكُلَهما كلَّ حينٍ قبلَ أن يُزْرَعَا فى أرض أرقى الأمم حضارةً وأعظمِها مدنيةً الآنَ أيجملُ بنا أن نُهْمِلَ هذه الآثارَ ونَدَعَها نَهْبًا للعابثين ، وغَرَضًا لصروف الليالى وتقلباتِ الهواء ؟ إن شئنا أن نَحْذُوَ حَذْوَ آبائنا فقد وجب علينا أن نتلمسَ مدنيتَهم وعلومَهم فى آثارهم الباقية ، وإن رُمْنَا أن نقرأ تاريخَ أُمَّتنَا المجيدَ حقَّ علينا أن نرجعَ إلى صحائفهِ الخالدةِ ورموزه القديمةِ . وإذا أردنا أن نحتفظَ بشرف الآباء ومجد الأقدمين . فلا أقلَّ من أن نُنشئَ الدورَ العظيمةَ ونُشَيِّدَ القصورَ الفخمةَ ، وننقلَ إليها فى خشوعٍ وخضوعٍ ، رُفَاتَ الملوكِ وما أعدوه فى قبورهم من الأثاث والرِّياش ليوم المعَاد . وإذا أردنا أن نستعيدَ مجدَنا ، ويَنْسِجَ حاضرُنا على مِنْوَالِ غابرِنا ، ونشعرَ بعظمةِ مدنيتنا ، وجلالِ مُلْكِهَا . عرضنا تلك الآثارَ والمفاخرَ ، وقد نُسِّقَتْ أبدعَ تنسيقٍ ، فى معارضِ الحفظِ والصيانةِ ، وفتحنا أبوابَ دورها على مصارعها ، ودعونا الأبناء للمثول بين يديها ، خاشعين خاضعين ، وسألناهم أن يملئوا قلوبَهم غيرةً على مجد الآباء

ونخر الأقدمين. تُرَى هل قمنا فى أى عصرٍ بما يجبُ لمن شادوا عِزَّنا القديمَ، وبَنَوْا لنا مجدًا لا يُدَانَى وعِزًّا لا يرامُ؟

ناب عن مصرَ وملوكِها منذُ خَلَّف الأقدمون آثارَهم ساكنُ الجنانِ اسماعيلُ باشا. فعرف للأقدمين فضلَهم، وللآثار خَطَرَهَا فأنشأَ دارَها، وعرضها للناسِ فى أَجْلَى مظاهرِ العظمةِ والجلالِ، وعَهِدَ بها إلى وارث مُلْكِه، جَلالَةِ مولانا احمد فؤاد الأول، فأولاها عنايةً كبرَى، وما قبرُ توت عنخ آمون وآثارُه واهتمامُ جلالته به ببعيدٍ.

(٤٧)

مَعْرِضُ الحَيَوانِ بالجيزة

إلى الشاطىء الغربيِّ من نهرِ النيلِ السعيدِ ، وتُجاهَ مدينة القاهرةِ ، وفي أخصب بقعةٍ من بقاعِ مصرَ أُنشئتْ حديقةُ الحيوانِ ، إذا رأيتها هالَكَ منظرُها ، وأعظمَك اتساعُها وإذا دخلتها وطُفْتَ بأرجائها تولاّك العجبُ ، وأخذتك الدهشةُ ، ووقفتَ بين يدى كلِّ منظرٍ من مناظرها ، وأمام كل مَرْأًى من مرائيها ، شاخِصَ البصرِ ، ساكِنَ الجسمِ ، ذاهبَ الفكرِ لا تُغْمِضُ طرفاً ، ولا تُبْدِى حَراكاً ، وكذلك كلُّ امرىءٍ وقف بين يدى العظمَةِ ، ومَثَلَ أمامَ الجلالِ ، إذا رأيتَ ثَمَّ رَأَيْتَ أشجاراً باسقةً ، ونجوماً مُخْضَرَّةً ، وأُسُوداً وظِباءً ، وبِحاراً وجبالاً وسَهْلاً وحَزْناً ، وتراباً أغبرَ ، ورملاً أصفرَ ، وظِلاًّ ظليلاً ، وقَيْظاً وهجيراً . وإذا سَمِعْتَ ثَمَّ سَمِعْتَ زئيراً وهديلاً ، ونهيقاً وصهيلاً ، ومُوَاءً وعُوَاءً ، ونُبَاحاً وخُوَاراً ، وحفيفاً وتغريداً ، ونعيراً وخريراً يُحيطُ بها سُورٌ عظيمٌ ، كَسَتْهُ الأشجارُ المتسلِّقةُ حُلَّةً سُنْدُسِيةً ،

مُوَشَّاةً بالأزهار البنفسَجيةِ . وقد قُسِّمتْ تقسيماً هندسياً يأخذ بمجامعِ القلوبِ وغُرِسَتْ فيها الخمائلُ والغاباتُ، من جميع الأشجارِ والنباتِ، ورُصِفتْ فيها الطرقُ والمماشى، وجعلت فيها الأرائكُ والمقاعدُ، والمجالسُ والمخابئُ، وأقيمت فيها عُرُنُ الأسودِ والنمورِ، وكُنُسُ الظِّباء، وزُروبُ النعامِ والزَّرافِ، وأقفاصُ الطيورِ، ومعاطِنُ الجمالِ والأفيالِ، وأجحارُ الأفاعى والهوامِّ ومسابحُ السمَكِ، ومغاطِسُ الطيورِ المائيةِ، وجلبتْ إليها كلُّ هذه الأنواعِ من الحيوانِ، وأسكنتْ فى مساكنِها، ووُكِّلَ بحراستها وتغذيتها، وتنظيفِ بيوتِها، رجالٌ لهم علمٌ بطباعِ الحيوانِ وعاداته، ومن شاء أن يُحْصِىَ أنواعَ حيوانِها، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فقد جىء بها من جميع مناطقِ الأرضِ، وممالكِ الدنيا، واتخذت الوسائلُ الصحيةُ لحمايتها من التأثر بجوٍّ يخالفُ جوَّ بلادها، يدخلها رُوَّادُ الراحةِ، وطلابُ العلمِ بأحوال الحيوانِ، فتراهم فيها غادين رائحين، يتنسمون الهواءَ العليلَ، فى الصباح وفى الأصيل، وإذا قلت من أنشأ الدارَ، وغَرَسَ الأشجارَ، وأقام الأسوارَ، وجمع بين النقيضين، وألَّفَ بين الضدين، قيل هى مَغْنًى من

مغانى إسماعيلَ ، ومَسْرَحٌ من مسارِح أُنْسِه . وأثرٌ من آثاره الخالدةِ ، غَنِيَ به حينا ، ثم جادت به نفسُه ، ليكونَ مَعْرِضاً عامًّا للحيوان فى عاصمةِ الديار ، لا يَقِلُّ عن معارضِ العواصِمِ الأوربية خَطَراً وجمالاً ، أسكنه اللهُ فسيحَ جنَّاته ، فكم له على الحضارة والمدنية والعلم فى مصرَ من أيادٍ بيضاء .

(٤٨)

مَدَنِيَّةُ إسماعيلَ باشا

قَضَى إسماعيلُ باشا زَهْرَةَ حياتِهِ، وعُنْفُوانَ شبابِهِ، فى ربوع أَوْرُبَّةَ، فَعَشِقَ ما فيها من مدنيةٍ وعِلْمٍ، وأسبابِ رَفاهَـةٍ وسعادةٍ، فلما وَلِيَ أمرَ مصرَ، خطرَ بباله أن يجعلَها بُقعةً أَوْرُبِيَّةً عِلماً ومدنيةً وحضارةً، ولكنْ كثيراً ما كان يَقِفُ جهلُ المصريين وجمودُهم فى طريقه، ويحولُ دون إنفاذِ كثير من رغائبه الشريفة، بدأ بالريِّ فنظمه، وأصلح الأَرَضِين، ورقَّى الزراعة حتى دَرَّت على البلاد خيراً عميما، ونشر المدارسَ والمعاهدَ، وعلَّم كثيراً من شباب هـذه الأمةِ وفِتْيانِها، ونَصَّبَ منهم كثيراً فى المناصب العظيمة، ثم أخذ فى نقل مخترعاتِ الغربيين الحديثة الى بلاده، وذلك كالسكك الحديدية، والأسلاك البرقية، وآلات الرى والطحنِ، والدرْسِ، والحرثِ، والعصر، والنسْجِ، فجلب منها شيئاً كثيراً، وأقامه فى جهات القطر، لينتفعَ المصريون بما جادت به قرائحُ الغربيين، ثم عَمَدَ إلى المدن الكبيرة، كالقاهرة،

والاسكندرية، وغيرِهما، وبنى فيهما القصورَ الشاهقةَ، والأبنيةَ المُنيفةَ، والمعارضَ والمكتبَاتِ العامةَ، وأنشأ فيها الحدائقَ والمتنزهاتِ والمغانِيَ والميادينَ، واختط فيها الشوارعَ العظيمةَ، وأضاءها بالأنوار الكهربائيةِ، وأنشأ فيها فناطيسَ الماء التي تنساب فيها المياهُ الى المنازلِ فى الأنابيب، ورغَّبَ كثيرين من سَرَاةِ مصرَ وأغنيائها فى سُكْنَى العواصمِ وتشييدِ المنازلِ العظيمةِ، وَسَطَ الحدائقِ النضرَةِ، فارتقى فنُّ العمارةِ فى عهده ارتقاء عظيما، وانتعشتْ لذلك الصناعةُ المصريةُ، ومال المصريون بعضَ الميلِ إلى استجلاء غوامضِ الحضارة الجديدة، وفتح أبوابَ البلاد لتجارةِ أَوْرُبَّـةَ وتُجَّارِهَا وأَمَّنَهم على أموالهم وأنفسهم، فانتشرَ التجارُ الفرنسيون والانجليزواليونانيون وغيرهم فى عواصم البلاد، وفتحوا دُوراً تجاريةً عظيمةً، وعرضوا فيها من المصنوعات الحديثة ما مَلَكَ أَلْبَابَ المصريين، وبَهَرَ أعينَهم، فأقبلوا عليها يَمْلئون بها قصورَهم، وكذلك أُنشئتْ فى المدن الكُبْرى الفنادقُ العظيمةُ، ومشاربُ القهوةِ الكثيرةُ، واشترى بعضُ المصريين العرباتِ البديعةَ، ونَشِطَتْ حركةُ البحثِ عن الآثارِ المصريةِ القديمةِ،

وأقبل علماء أُورُبَّةَ ومؤرخوها على مصرَ، وكتبوا عن آثارها شيئاً كثيراً، وشَتَوْا في فنادقِها، وهكذا جرى سيلُ المدنيةِ الغربيةِ في مصرَ جارفاً، وهكذا يُعَدُّ عصرُ هذا المصلح الكبيرِ فاتحةَ المدنيةِ الحديثةِ، وأوّلَ خُطْوَةٍ في سبيل التعارفِ والتعاونِ بين مصرَ ودولِ أُورُبَّةَ، أسكن الله جنّاتِ النعيم مُنْشِئَ جنّاتِ مصر، وأمطر قبرَهُ الطاهرَ شآبيبَ الرّحمةِ والرّضوانِ.

جلالة الملك المعظم   احمد فؤاد الأول

(٤٩)

جلالة الملك أحمد فؤاد الأول

هو صاحبُ الجلالةِ مولانا المعظمُ أحمد فؤاد الأول ، مَلِكُ مصرَ ، ابنُ عزيزِ مصرَ الجليلِ ، إسماعيلَ باشا ، ابنِ البطل المِغْوَارِ إبرهيمَ باشا ابنِ مُحْيِي مصرَ ، محمدِ عليّ باشا ، وهو تاسعُ المالكين الأماثلِ من الأسرةِ المحمديةِ العلويةِ .

وُلِدَ جلالةُ الملكِ فى ثانى ذى الحجة سنة ١٢٨٤ هـ ٢٦ مارس سنة ١٨٦٨ بقصر والده بالجيزةِ .

ومن جميل الاتفاقِ ، أن جلالتَه وُلِدَ فى شهرِ الحجّ إلى بيت اللهِ الحرامِ ، واعتَلَى عرشَ مصر فيه ، فكأنه جلَّتْ قدرتُه ، أراد بذلك أن يُرْشِدَ المصريين إلى أنه كعبتُهم التى إليها يَحُجُّون ، وحِماهم الذى فيه يحتمون ، وإنَّ فى اسمه الشريفِ ما يدلُّ عَلَى أنه قلبُ مصرَ النابضُ ، وعَلَمُها الخافقُ .

لما بلغ السابعةَ من حياته السعيدةِ ، أدخلَه المغفورُ له والدُه مدرسةَ الأنجالِ الكرامِ ، فتَلَقَّى فيها العلومَ ، ولما بلغ حفظه الله

العاشرةَ، صدر أمرُ والدِه الكريمُ بسفره إلى چنيفَ، وأن يكونَ في معيتِهِ اثنانِ من فضلاءِ مصرَ، هما (حسن جلال باشا) و (حَمَدالله أمين باشا)، ليقوما بتهذيبه وتعليمه.

وفي سنة ١٨٨١ رآه (أُمبِرْتو الأولُ) مَلِكُ إيطاليا، فَسُرَّ بذكائه أَيَّمَا سرورٍ، وأشار عَلَى والده وكان صديقَه، أن يدخلَه مدرسةَ الفنونِ الحربيةِ (بتورينو)، وهي إحدى مدارسِ الدنيا الثلاثِ العُليا لتعليم فنِّ الحربِ، فخرج منها وسنُّه لا تزيدُ عَلَى عشرين سنةً.

ولما رآه السلطانُ عبد الحميد، وكان يزورُ والدَه بالآستانةِ، أحبه لعلمه وسموِّ أخلاقه، فجعله ياورَه الفخري، ثم مُلْحَقَه العسكريَّ بفينةَ، وحياةُ جلالتِهِ الحافلةُ بجلائل الأعمالِ الوطنية ترشدُنا إلى ما اتصفتْ به نفسُه الكبيرةُ، من الخِلاَلِ الحميدة، وسُمُوِّ المداركِ، وقد وَعَى صدرُه الشريفُ تاريخَ مصرَ الحديثةِ، وراقبَ حوادثَ وادي النيلِ عن كَثَبٍ، من لَدُنْ عهدِ المغفورِ له والدِه حتى الآنَ، فهو خيرُ من يتولَّى أمْرَها، ويُدَبِّرُ شئونَها، وقد نالت مصرُ بفضل ذلك العِلْمِ الجمِّ، وتلك الخِبْرةِ الواسعة، ما لم تكنْ لتنالَهُ

فى عهد غيره ، فصارت مملكةً مستقلةً ، حرةً ، موفورةَ الخيرِ ، عزيزةَ الجانبِ ، كما كانت منذُ ستةِ آلافِ سنةٍ .

ومن خِلالِ جلالةِ الملكِ الشريفةِ ، أنه يمقتُ الكذبَ والرِّياء ، ويحبُّ الإخلاصَ فى القول والعمل ، لأنه حفظه اللهُ ، لا يعملُ إلا رغبةً فى الخير ، منزهاً عما سواه ، شأنُ الملوكِ المصلحين فى كل زمانٍ ، ولجلالته شَغَفٌ عظيمٌ باستطلاع أخبارِ الأممِ ، ودراسةِ أسبابِ رقيِّها ، وانحطاطِها ، ليكونَ رائدَهُ الحكمةُ والسدادُ ، فيما يحبُّه لأمته ويرضاه .

وفى يوم الثلاثاء ٢٢ ذى الحجـة سنة ١٣٣٥ هـ ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ م ، نودِىَ بجلالته سلطاناً على مصرَ ، بعد أن بلغ سِنَّ الكمالِ فى الملوكِ ، فجمع أبقاه اللهُ إلى همةِ الشبابِ ، حِكْمَةَ الشيوخِ ، وما زال بمصرَ منذُ وَلِىَ أمْرَهَا ، يحاربُ الجهلَ فيها ، ويَدْرأُ الأذى عنها ، ويَقِفُ كلَّ جهودِهِ ووقتِهِ عَلَى العمل لإنجاحِها وها هى ذى قد صارت بفضلِ جهادِهِ العظيم ، وسعيِهِ المشكور ، من أعظم أُمَمِ الدنيا ، عِلْماً وثَرْوَةً وحضارةً ، عاش لمصرَ مليكُها الأمجدُ ، وولىُّ عهدِهِ الكريمُ .

(٥٠)

الرَّخَـــاء

إذا أنتَ عرضتَ أمامَ نظرِكَ تاريخَ مِصرَ ، وقلَّبْتَ صفحاتِه صفحةً صفحةً ، لم تجدْها فى أىِّ عصرٍ من العصور أرْغَدَ عيشاً ، ولا أرْخَى بالاً ، منها فى عصرِ مليكِها المحبوبِ أحمد فؤاد الأول ، بل لقد توالتْ عليها أزْمَانٌ عضَّها فيها الفقرُ بنَابِهِ ، وحلَّتْ بها الإِحَنُ من كلِّ جانبٍ ، فى كثيرٍ من أدوارِ تاريخِها ، حتى إذا حملَ عِبْئَهَا هذا المَلِكُ السعيدُ ، وَلَّى الفقرُ منها هارباً ، وحلَّ محلَّه رَخَاءٌ عامٌّ ، وسعادةٌ شاملةٌ ، وكأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى ، أراد بذلك أن يجعلَ عصرَه الزاهرَ فاتحةَ خيرٍ وسعادةٍ للمصريين أجمعين ، حتى يقولوا بحقٍّ ، إن عصرَه كان عصرَ رخاءٍ ، ويُمْنٍ ، وسعادةٍ ، كما كان عصرُ أبيه الكريمِ عصرَ إصلاحٍ ، وتمدينٍ ، وتحضيرٍ ، وعصرُ جدِّه الأكبرِ عصرَ تحريرٍ ، وتنويرٍ ، وبذرٍ لبذورِ الإصلاحِ ، نعم جاء اعتلاؤه لعرشِ مصرَ فألاً حسناً للمصريين ، فقد ارتفعتْ فى عهدهِ أثمانُ الحاصلاتِ الزراعيةِ ارتفاعاً لم يُعْهَدْ

له مثيلٌ من قبلُ، حتى بِيعَ قنطارُ القطنِ بخمسةِ آلافِ قرشٍ، بعد أن كان يباعُ بأربعمائةٍ، وبِيعَ إردَبُّ القمحِ بستمائةِ قرشٍ بعد أن كان يُباعُ بمائةٍ، وكذلك ارتفعتْ أثمانُ الأنعامِ، حتى بِيعَ الثورُ بعشرةِ آلافِ قرشٍ، وقد كان لا يُساوِى أكثرَ من ألفٍ.

وإذا أنت ذكرتَ أن السوادَ الأعظمَ من المصريين زُرّاعٌ، أدركتَ مبلغَ ربحِ البلادِ ورَخائها فى هذا العهد السعيدِ، عَلَى أن الرخاء شَمِلَ جميعَ طبقاتِ الأمةِ، فقد رَبِحَ التُّجّارُ أموالاً جاوزتِ العَدَّ، وفاقتِ الحِسابَ، وكذلك الصُّنّاعُ، وارتقت رواتبُ المستَخْدَمين فى دواوينِ الحكومةِ، وبيوتِ التجارةِ، والمصارفِ، والشركاتِ وغيرِها، وزادت أُجْرَةُ عُمالِ المُياوَمَةِ زيادةً مَكَّنَتْهم من أن يَعيشوا عَيْشاً رَغِيداً، وامتلأتْ خزائنُ وجوهِ الأمةِ وسَرَاتِها ذهباً، وتسنَّى لهم أن يفُكوا عِقالَ ضِياعِهم، وقُصورِهم، التى رهنوها للمصارفِ الأجنبيةِ، بعد أن أثقلوا كواهِلَهم بالديونِ الكثيرةِ، وها أنت ذا ترى بعينك كثيرين من أفراد أُمّتنا، يَشترون الضِّياعَ الواسعةَ، ويَشيدُون القصورَ الفَخْمَةَ، ويفرِشونها بغالى

الرِّياشِ ، وترى أيضاً كثيرين من ذوى المالِ الوفيرِ ، يُنْشِئون بيوتاً تِجَارية ، ومعاملَ صناعيةً ، وشركاتٍ حيويةً ، ومصارفَ ماليةً ، وترى كذلك كلَّ فردٍ من أفرادِ هذه الأُمةِ يُنْفِقُ عن سَعَةٍ ، ويَبْذُلُ فى تعليمِ أبنائه وبناته وتربيتهم من المال شيئاً كثيراً ، وإذا التمستَ لكلِّ ذلك عِلَلاً وأسباباً ، لم تجدْ غيرَ الرَّخاء والغِنَى اللَّذَيْنِ شَمِلاَ المصريين جميعاً فى عصر مليكهم المُفَدَّى ، أحمد فؤاد الاول ، أطال اللهُ عُمُرَهُ ، وأعزَّ مُلْكَهُ ، وجعل أيامَه أيامَ سعادةٍ ويُمْنٍ ، وأَقَرَّ عينَ أُمتِهِ ببقاء ولىِّ عَهْدِهِ الأميرِ فاروقٍ ، كَلَأَهُ اللهُ ورعاه .

(٥١)

النِّقـــــابات

ظلَّ العالَمُ فى هذه الدنيا يُعانِى آلامَ أَثَرَةِ الأغنياء ، وظُلْم أربابِ المصانعِ ، والمعاملِ والمزارعِ ، واستبدادِ الحكوماتِ ، دهراً طويلاً ، حتى لقد كان الأجيرُ يَحْسَبُ نفسَه عَبْداً قِنًّا ، اشتراه مستأجِرُهُ بهـذا الأَجْرِ الزهيدِ ، الذى لا يَسُدُّ عَوَزاً ، ولا يُقِيمُ أَوَداً ، ولا سبيلَ إلى عِتْقِهِ من رقِّهِ ، ما دام فقيراً ، لا يجدُ مُعيناً ولا نصيراً ، إلى أن هداه اللهُ النَّظَرَ فى أمرِه ، وأمْرِ من يَسْتعمِلُه ، فوجد نفسَهُ يَكُدُّ ويَكْدَحُ ، ويَشْقَى ويتعَبُ ، وذاك يَجْنِى الثِّمَارَ ، ويكتنزُ الأموالَ ، ويستأثِرُ بما فى الدنيا من نعيمٍ ، وكذلك وجد أن هذه الصُّروحَ الشاهقةَ ، والمختَرَعاتِ العظيمةَ ، والزروعَ الكثيرةَ ، وكلَّ ما فى المسكونةِ من مَدَنيَّةٍ وحضارةٍ أثَرٌ من آثارِ يَدِهِ ، فأخذ يَعْرِفُ لنفسهِ قيمتَها فى الوجود ، وَيقِفُ أمامَ ربِّ العملِ مَوْقِفَ العاملِ المُعِينِ ، لا مَوْقِفَ الأجيرِ المِسكينِ .

كَبُرَ على السيدِ أن يسألَه خادمُه أجْرَ ما يعملُ، وأن يستقِلّ أجْرَهُ القليلَ، ويستكثرَ عملَه الكثيرَ، فصَبَّ عليه سوطَ عذابه وأرْهقَهُ من أمرِه عُسْراً، فأعوزَتِ العاملَ المعونةُ، فاستنصرَ أخاه فرأى أن ينصرَه، ليتخذَ عنده يداً لعله مستعينٌ به إذا لحقه ضَيْمٌ، أو ألَمَّ بِهِ مكروهٌ. هكذا سرَت رُوحُ التعاونِ بين العمالِ والصُّنّاعِ، والمستخدَمين. وهكذا عرفوا معْنَى الاتحادِ، فتقاربتْ ميولهم، وتناسَوُا الأحقادَ فيما بينهم، واتفقتْ كلمتُهم، واجتمع كلٌّ قبيلٍ منهم. وألَّفُوا نقاباتٍ تعاونيةً تجعلُهم جِسْماً واحداً، وتَعصِمُ الأفرادَ من ظُلْمِ الحكوماتِ وعَبَثِ أربابِ الأعمالِ، وتُبَيِّنُ للملاَ مبلغَ خطرِهِم فى الحياةِ. أُلِّفَتِ النقاباتُ فى بلادِ الغربِ، وارتفع شأنُ العاملِ هناكَ، ونال حقوقَهُ، فأقبلَ عَلَى عمله يتْقِنُهُ ويُجَوِّدُه، مُؤْمِناً بأن مزايا هذا الإتْقانِ عائدةٌ عليهِ. كان ذلك فى بلاد الغرب، فهل يا تُرَى سَلَكَ العاملُ المصرىُّ سبيلَ أخيه الغربىِّ، ليرفعَ الحيْفَ وينجوَ من الظلمِ. إن عمالَ مِصرَ وطوائفها المختلفةَ، أخذوا يُحاكون عُمّالَ الغرْبِ فألَّفوا النقاباتِ. وها هم أولاء الآنَ يجنون جَنَاهَا الدّانىَ. اللهم

إلا طائفةَ الزُّرّاعِ المصريين ، وأنتَ تعلمُ أنها السوادُ الأعظمُ من السكانِ ، وأنها لم تنلْ من العلمِ نصيباً يجعلُها تفهمُ معنى التعاونِ والاتحادِ

برّ بها المليكُ أحمد فؤاد الأول ورأى أن يُخلِّصَها من شِرَاكِ الدائنين والمصارفِ الماليةِ والأغنياء ويَهْدِيَها خيرَ الطرقِ لاستنباتِ الأرضِ ، وشراء البذورِ والسمادِ ، وبَيْعِ الثمارِ ، وتربيةِ الماشيةِ ، فأصدرَ أمرَه الكريمَ بتأليف نقاباتٍ زراعيةٍ في جميع جهاتِ القطرِ المصريّ ، تُكَسِّرُ أغلالَ الزارعِ المصريّ وتَمدُّه بالمال ينفقُه على زرع أرضه وتُدَبِّرُ له أمرَ السمادِ ، وتتولّى جَلْبَ البذورِ والأشجارِ . وبيعَ الحبوبِ والأثمارِ . وتحفظُه من الدائنين والتجّارِ وتُلْقِي على الناسِ دروساً في التعاونِ وآثارِه في النهوض بالبلاد .

عاشَ مليكنا عوْناً لأمته ، وملاذاً لشعْبِهِ

(٥٢)

تعليم البنات

المرأةُ أليفةُ الرجلِ في السرّاءِ والضراء، وشريكتُه في الرّخاء والبأساء، إن كان له عَمَلُه في الحقولِ والمزارعِ، وميادينِ الحربِ والسياسةِ، وإدارةِ الشئونِ العامّةِ، فلها أثَرُها في المنازلِ وتدبيرِها والأولادِ وتربيتِهم، والأزواجِ وتوفيرِ راحتِهم. ألا ترى أن الرجلَ يَكُدُّ ويكدحُ، ويُحَصِّلُ رِزْقَهُ، ويجعلهُ في يد حليلته تتصرفُ فيه على حسب أهوائها، فإن شاءتْ بَذَّرَتْ وجعلتْ بينه وبين الغِنَى حِجَاباً مستوراً. وإن شاءت قَصَدَتْ، فجعلته بعد حينٍ مُثْرِياً كبيراً. ألا ترى أنه يَمْضِي لشأنه وَيُخَلِّفُ بين يديها الأولادَ، فإن كانت تُحْسِنُ تربيتَهم وتهذيبَ نفوسِهم وتثقيفَ عقولِهم، وتقويمَ ألسنتِهم نشئوا ملائكةً أطهاراً، وإن أسلمتهم إلى الطبيعةِ وفعلِها والتقاديرِ وأعمالها والخَدَمِ وجهلهم، شبُّوا على أمتهم شراً ووبيلاً. ألا ترى أنها إذا حَسُنَتْ أخلاقُها كانت أمامَ عشيرها ملَاكاً رحيماً، وإذا ساءت أخلاقُها وأعْوَزَتْها

التربيةُ كانت أمامهُ شيطاناً رجيماً . عرفت أممُ الغربِ ذلك فَعُنِيَتْ بالمرأةِ عنايتَها بالرجل ، واهتمتْ بها فاهتمتْ بأبنائها . وها هى ذى الآن لا تقلُّ خطراً فى الحياة عن الرجل . أما أمم الشرقِ فقد جهلتْ قدرَ المرأةِ وسَلَبَتْها كلَّ حقوقِها ، فكان ذلك سببَ تأخُّرِها . وأصابَ المرأةَ المصريةَ ما أصابَ الشرقياتِ ، جميعاً من الإهمالِ فَرَسَفَتْ فى قيودِ السجنِ دهراً طويلاً ، حتى منَّ الله عليها بِمَنْ يُهَيِّئُ لها فى مصرَ حياةً سعيدةً ، وعيشاً رغيداً ، تشعرُ فيه بِعِزَّتِها وتُقَطِّعُ أغلالَ أسْرِها . ذلك هو رَبُّ الإصلاحِ فى مصرَ مولانا أحمد فؤاد الأول . عَرَفَ للمرأةِ خطرها فى رقى الأمةِ وتهذيب ناشئِها وإرضاعِهم لِبَانَ الأخلاقِ الفاضلةِ ، وتعويدهم على الفضيلةِ ، منذُ نعومةِ أظفارِهم ، نظر جلالتُه إلى ما أنْشَأَ لها أسلافُه من معاهدِ التربيـة والتعليمِ ، فإذا هى مدارسُ قليلةٌ فى بعض المدنِ ، تحاملُ على نفسها ، ولا إقبالَ عليها ، ولا نصيرَ لها ، فَعُنِيَ بها عنايةَ الأبِ الرحيم ، وأجرى فيها ماءَ الحياةِ ، حتى نَشِطَتْ من عِقَالِها ، وأقبلتِ الفتياتُ على تَلَقِّى العلمِ فيها ، ثم أمر جلالتُه فأنشئتْ فى جميع العواصِمِ والقُرَى مدارسُ للبنات ، ولا

يَمْضِي غيرُ قليلٍ ، حتى يتكافأَ الرجلُ والمرأةُ فى مصرَ ذكاءً وإدراكاً ، هنالك نَأْمَنُ على أبنائنا ، فنجعلُهم بين سمعِ المرأةِ وبَصَرِها ، وعلى خزائنِ أموالِنا فَنُسْلِمُها مفاتيحَها ، آمنين مطمئنين على ثِمارِ كَدِّنا ، ألا ترى بعد ذلك أن الفضلَ فى هذه النهضة النسويةِ المباركةِ ، يؤولُ إلى صاحب الجلالة ، مليكِنا المحبوبِ ، وأنه منذُ تحمَّلَ أمْرَنا ، ساهرٌ على ما فيه رُقِيِّنا وفلاحُنا ؟ .

(٥٣)
الأعمال الخيرية

لكل أمة من الأمم نصيبها من الأيتام، والفقراء، والعجزة، والمرضى، والعاطلين، والجاهلين، وذوى العاهات، وهؤلاء إذا كثروا فى بلد من البلدان، كانوا خطراً عظيماً على أمن السكان وراحتهم وحياتهم، وهم يكثرون إذا غلّ الأغنياء وسراة الأمة أيديهم عن العطاء، وبخلوا بالمال ينفقونه فى أوجه البر والإحسان، ولقد كان حظ بلادنا من هؤلاء المعوزين وفيراً، وكذلك كان قسطها من المثرين عظيماً، فهل قام هؤلاء الأغنياء بما توجبه عليهم المروءة والأريحية، من إعانة الفقراء، وإيواء العجزة، وتربية الأيتام، وتعليمهم، ومعالجة المرضى، ومعاونة العاطلين، وتعليم الجاهلين، وإجراء الأرزاق على ذوى العاهات؟ إنهم لم يقوموا بمفترض تلك الآلاء ولم يؤدوا حقّ الله فى أموالهم، اللهم إلا قليلاً ممن يتوارثون العطف والحنان، ويتواصون بالجود والإحسان.

رأى ذلك مليكنا، فمدّ يده إلى الفقراء قبل أن يمدّها إلى الأغنياء، وإلى المرضى قبل الأصحاء، فأنشأ المساجد للمصلين،

والملاجئ للعَجَزَةِ والمساكين ، والمشاغلَ للأيتام والعاطلين ، والمستشفياتِ للمرضَى والضعفاء ، وما أُصِيبَ قومٌ بحريقٍ أو بغرَقٍ أو بقحط فنَادَوْا يَأهْلَ المروءةِ والنجدةِ ، إلاَّ كان المليكُ أولَ الْمُلَبِّين وخيرَ المواسين .

ضرب بذلك مثلاً عالياً لِسَرَاةِ أُمَّتِهِ وأغنيائها ، وعَلَّمَهُم كيف يكونُ عطفُ الغنِيِّ على الفقير ، وأغراهم بولوج أبوابِ الخيرِ ، وجعل عَطْفَهُ ورِضاه عن الأغنياء جزاءً لعطفِهم وشفقتهم على الضعفاء والمعْوِزِين .

فمن شاء أن يُزَيِّنَ صدْرَه بأوسمةِ المجدِ والشرفِ ، ويُحَلِّيَ جبينَه بشاراتِ الرضا والقَبُول ، قَدَّمَ بين يَدَيْ أُمَّتِه عملاً صالحاً ، وأنشأ للعِلْم فيها أثراً خالداً ، وما المعاهدُ ، والمدارسُ ، والمِصَحَّاتُ ، والملاجئُ ودورُ الكتب ، التي يَتَبَارَى المصريون في تشييدها ، وحَبْسِ الضِّيَاعِ عليها ، إلاَّ نتيجةً لعطفِهِ الأبَوِيِّ على شعبِهِ الهادئ

وهذا هو السرُّ في اجتماع القلوبِ على محبتِهِ ، واتحادِ الألسنةِ في الدعاء له ، أن يطولَ عُمُرُه ويدومَ مُلْكُهُ ويقْهَرَ عَدُوَّه ، ولولي عهده ، أن يرعاه الله ويُبْقِيَهُ ذُخْراً للبلاد

(٥٤)

استقلال مصر

كانت مصرُ منذُ فتحها العثمانيون ولايةً عثمانيةً ، تولّى عليها الدولةُ العليةُ الولاةَ والياً بعد والٍ . ولا أظنُّك قد نسيتَ ما لاقت على أيدى هؤلاء الوُلَاةِ من الظلمِ والاستعبادِ ، وما أصابها من الفقرِ والإمحالِ ، حتى أراد اللهُ لها أن تذوقَ طَعْمَ الحريةِ . وتتَفَيَّأَ ظِلَالَ الاستقلالِ ، فمَنَّ عليها بمحررها الغازى الكبيرِ محمدِ علىٍّ باشا الذى انتشلها من وَهْدَتِها وأخرجها من هُوَّتِها . وما زال يَسيرُ بها فى طريق الحياةِ ، ويذودُ عن حِمَاها ذِيادَ الليثِ عن عرينه ، حتى انفردَ بإدارة شئونها ، وجعل لها جيشاً وأسطولاً ، وأرغم الدولةَ العليةَ بحد السيفِ على أن تجعلَ ولاية مِصْرَ له ولسلالته الطاهرةِ ، يتوارثُها الخَلَفُ منهم عن السَّلَفِ . وللدولةِ فى مقابلِ ذلك جِزْيَةٌ سنويةٌ ، وإشرافٌ على بعض الشئون المصرية .

وهكذا ظلَّ حاكمُ مصرَ يُسَمَّى والياً حتى جلس على عرشها المغفورُ له إسماعيلُ باشا وجرى بها فى سبيل الرقى شوطاً جعلها

في مَصَافِّ الدولِ الراقيةِ ، وأرَى الناسَ جميعاً أن مصرَ قد غَنِيَتْ برجالِها وجيشِها وحكومتِها عن تَدَخُّلِ الأجنبيِّ في شئونها ، وأنه قد آنَ للدولةِ أن تمنحَها استقلالَها ، وتُغيِّرَ لَقَبَ حاكِمِها وسألها ذلك فرضِيَتْ به طَيِّبَةً نفسُها ، ومنحتْ مصرَ استقلالاً داخلياً مع بقاء سيادتِها الدينيةِ ، وجعلت لَقَبَ الحاكمِ (خديويًّا) .

وما كادت البلادُ تَجْنِى ثِمَارَ هذا الاستقلالِ حتى جاء خلفاء إسماعيلَ باشا . واحتلَّتها الجنودُ الانجليزيةُ في عهدهم وأعلنت إنجلترةُ الحمايةَ عليها سنة ١٩١٤ ولُقِّبَ حاكِمُها (بالسلطان) .

فلما اعتلى عرشَها جلالةُ الملكِ أحمد فؤاد الأول جرى على سنةِ أبيهِ وجدِّه ، في تخليصِ مصرَ من مآزِقِها ، وإنقاذها من أيدى غاصبيها ، وأخذ بيدِ شعبِه ، وسَلَكَ كلَّ سبيلٍ لإعادةِ حريتِهِ واستقلاله ، اللذين نالتهما البلادُ على يَدَىْ أبيه وجده ، ثم فقدتهما في عهد أسلافِهِ . ظل المليكُ وسَاسَةُ بلاده يَقْرَعُونَ الحجةَ بالحجةِ . ويرْمُونَ الدليلَ بالدليل ، حتى غلب حَقُّنا باطلَ المحتلِّين وأذعنوا لإرادتنا . وألْغَوْا حمايتَهم وعاد لمصرَ استقلالُها وحريتها في يوم الأربعاء ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . بفضل سَعْيِ جلالته المحمودِ

وجِهادِه المشكورِ . ولَقَّبَ نفسه (ملك مصر والسودان) . وها هى ذى بلادُه العزيزةُ صارتْ دُولةً بين الدُّولاتِ ، لها ما للدولِ المستقلةِ . وعليها ما عليهنَّ ، ورفعَ المصرىُّ رأسَهُ وشَعَرَ بالعزة بعد أَن كان عَانِىَ الرأسِ مَهِيضَ الجَنَاحِ . عِشْتَ يا مَلِكَ الاستقلالِ والدُّستورِ ودارِ النيابةِ وعاشَ فاروقُ عزيزاً سعيداً

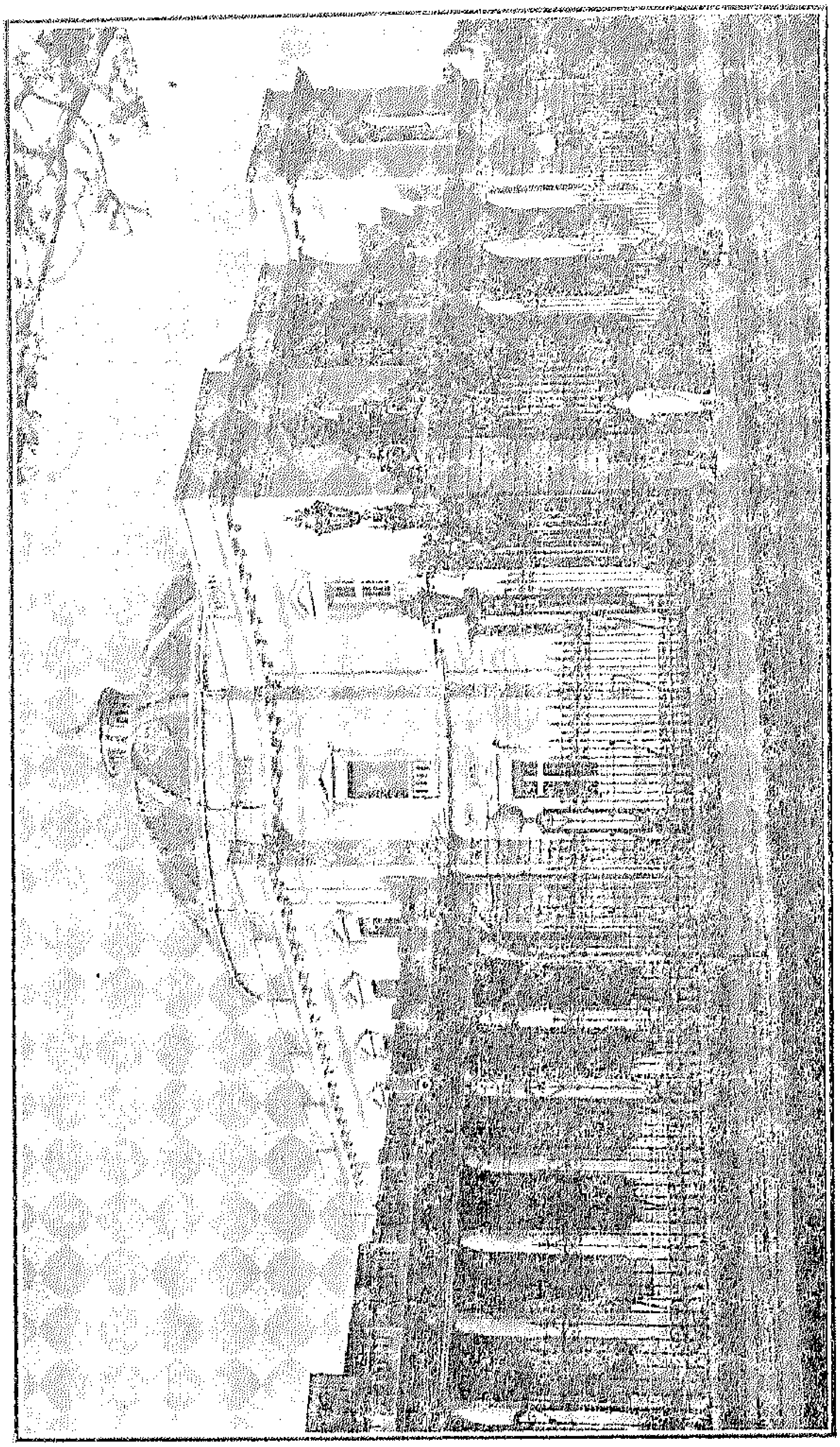

دار النيابة (البرلمان)

(٥٥)

الدستور ودار النيابة

لكل شعب من الشعوب نوعٌ من الحكم ارتضاه ومضى فيه، فمن ذلك المملكةُ المطلقةُ، التي يؤولُ أمرُها إلى ملكٍ يحكمها بمحض إرادتِه، لا يتخذُ له ظهيراً ولا مُشيراً، والمملكةُ المقيَّدةُ، التي يستعينُ مَلِكُها في إدارة شئونها، وسَنِّ قوانينها، بهيئةٍ نيابيةٍ يُنتخبُ أفرادُها من أبناء الأمة، والجمهوريةُ، وهي أن تُحكَمَ البلادُ بجُمهورٍ من الأكفاء المخلصين الذين أنجبتهم، ينتخبون من بين أفرادها، ويرأسُهم واحدٌ منهم، يختارونه لمدةٍ معينةٍ، وما إلى ذلك من أنواع الحكمِ الكثيرةِ.

ولقد كان أمرُ مصرَ منذ خلقها اللهُ بيد مَلِكِها، وهي مستقلةٌ، وواليها وهي ولايةٌ، ينفردُ الواحدُ منهما بحكمِها، وَشَرْعِ القوانينِ لها، وإقامةِ الحدودِ دُونَ أن يستأنسَ برأي عالمٍ، أو يسترشدَ بخِبْرَةِ خبيرٍ، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في تأخُّرِها، وانحطاطِها.

مضتْ في هذا السبيلِ، حتى منَّ اللهُ سبحانه وتعالى عليها

بعن أنقذها من بين مخالب الأسود محمد عليّ باشا ، لم يشأ أن يستأثر بالحكم فى البلاد ، بل اختار هو بعض علماء الأمة ومفكريها ، وألف منهم مجلساً ، سماه المجلس النيابيّ ، يستشير أعضاءه فيما يرقى شأن البلاد ، ولم يعهد إلى أبنائها فى اختيار هؤلاء النواب ، لأنهم لم يكونوا يفقهون إذ ذاك معنى النيابة .

ولما ولى أمرها ممدنها ومحضرها ، المغفور له إسماعيل باشا ، أدخل فيما أدخل من الإصلاحات طريقة الحكم النيابيّ ، وأنشأ مجلساً نيابيًّا ، ولكنّ هذا النوع من الحكم عاقته عوائق كثيرة ، أهمها جهل الشعب المصريّ وعدم اهتمامه بمزايا الحكم النيابيّ ، فكان نصيبه الزوال ، وبقى أمر البلاد بعده بأيدى خلفائه ، يحكمونها بمحض إرادتهم ، وبمعاونة وزرائهم الذين يستوزرونهم من تلقاء أنفسهم .

حتى آل ملكها إلى ربيب الحرية ، ونصير المدنية ، وملاذ الإنسانية ، جلالة مولانا الملك أحمد فؤاد الأول ، لم يشأ أن ينفرد بالحكم فى البلاد ، بل منح أمته دستوراً من أرقى دساتير العالم ، وتقدم إليها أن تنتخب من أبنائها الأكفاء المخلصين الذين

يُؤْتَمَنُون عَلَى مصالحهـا ، ويُؤْثِرونها عَلَى أنفسهم وسنّ قانوناً للانتخابِ، يُنْتَخَبُ بمقتضى فِقَرِهِ أعضاءُ المجلسِ النيابيّ ومَجْلسِ الشيوخِ ، وهذان المجلسان يُعاوِنان جلالتَه فى حكمِ البلادِ ، ووضعِ قوانينِها . ويشتركان معه فى استنباطِ أَنْجَعِ الوسائلِ لترقيتها ورَفعِ شأنها ، وهكذا صارت حكومةُ مصرَ ملكيةً دستوريةً ، بفضلِ برِّ المليكِ بشَعْبِهِ ، وحبّه لترقيةِ أمتهِ ، وإذا أردت أن تدْرِكَ مِقدارَ شَغَفِ جلالتِهِ بحب مصرَ والعملِ لخيرها ، فاقرأْ هذا الخطابَ ، الذى وجّهه لرعاياه المخلصين لسُدّتِهِ العليةِ ، بعد أن استقلتْ مصرُ « لقد منّ اللهُ علينا بأن جعل استقلالَ البلادِ عَلَى يَدِنا وها نحن أولاء نُشْهِدُ اللهَ ونُشْهِدُ أمتَنا فى هذه الساعة العُظْمَى ، أننا لن نَأْلُوَ جُهْداً ، فى السَّعْيِ بكلّ ما أوتينا من قوةٍ وصِدْقٍ وعزمٍ لخير بلادنا المحبوبةِ ، والعملِ على إسعادِ شَعْبنا الكريمِ ، وإنا ندعو المولَى القديرَ ، أن يجعلَ هذا اليومَ فاتحةَ عصرٍ سعيدٍ يعيدُ لمصرَ ذِكْرَى ماضيها المجيدِ » أيّدَ اللهُ مُلْكَه ، وأطال عُمْرَهُ .

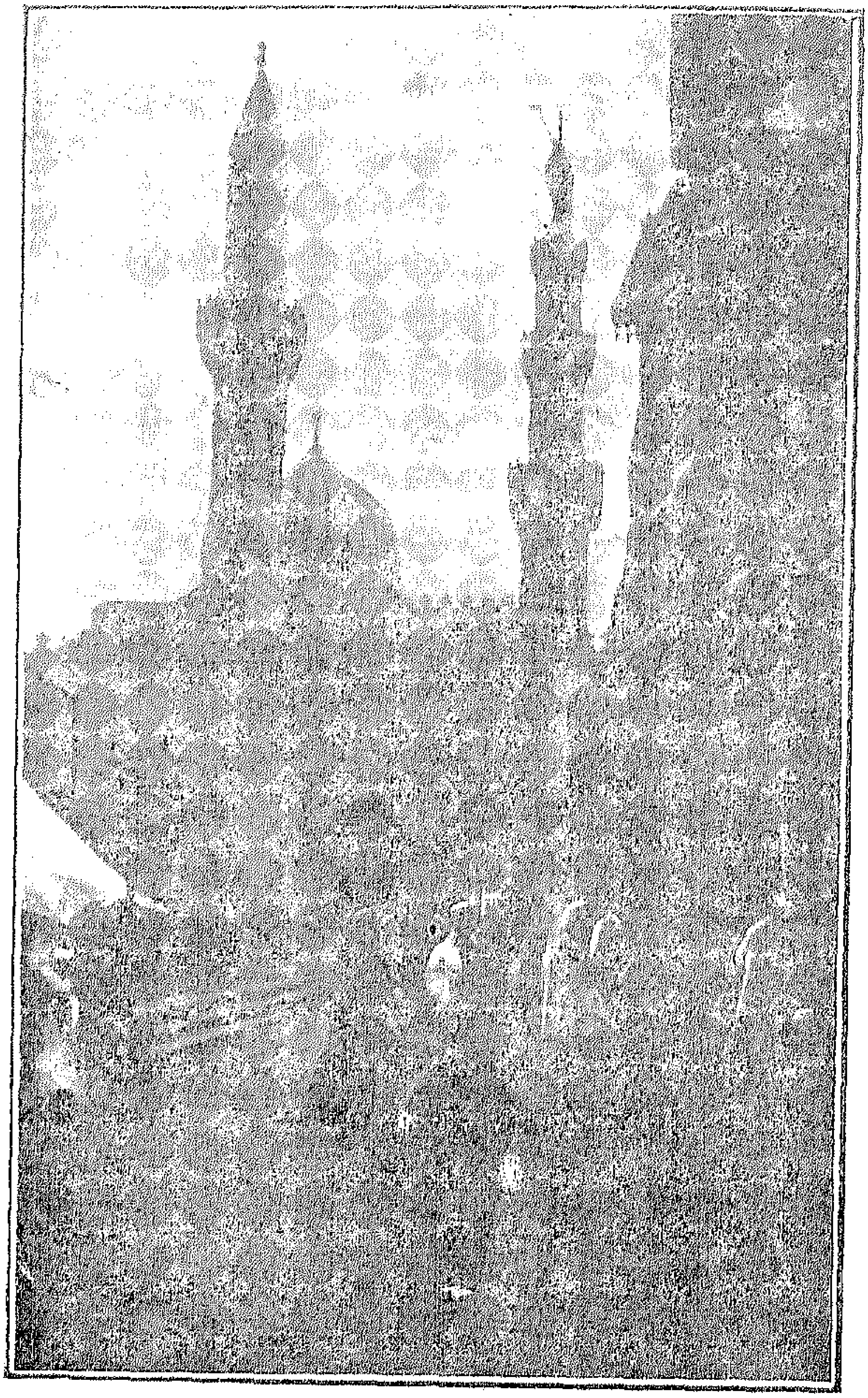

الجامع الأزهر الشريف

(٥٦)

إصلاحُ الأزهرِ الشريف

مَهْدُ العلم، ومنبعُ العِرفانِ، ومَهْبِطُ النورِ، وكَعبةُ المتعلمين، وقِبلَةُ الوافدين، ومجلِسُ العلماءِ، ونادِي الفصحاء، شاده جوهرٌ بأمرِ المُعزِّ لدينِ اللهِ الفاطميِّ، وجعله مدرسةً جامعةً، ودارَ علمٍ عامةً، فأقبل عليه الطلابُ من كل فجٍّ، يتلقّوْن العلومَ الدينيةَ، والنحويةَ، واللغويةَ، من علمائه الذين يأخذون وظائفهم من ملوكِ مصرَ وحكامِها، وما زال يرتقِي ويعظُمُ، ويبعُدُ صِيتُهُ، ويَذِيعُ ذِكْرُهُ، بينَ العالَمِينَ، حتى صار مَحطَّ رِحالِ المتعلمين من كل دولةٍ شرقيةٍ، ومُنْتَجَعَ رُوّادِ العِرْفَانِ من كل أمةٍ إسلاميةٍ، وكلما زاد خَطَراً وطُلَّاباً، زاده الفاطميون والأيوبيون فخامةً وعِمَارَةً، وتبارَى الناسُ فى حَبْسِ ضِياعِهم عليه ثم طاف به طائفٌ من الإهمال فى عهد العثمانيين، كاد يذهبُ ببهائه، ويقضى على العلم فى مصرَ بالفناء، لو لا أنْ مَنَّ اللهُ عليها بتلك الأسرةِ العَلويةِ المباركةِ، فعرف ملوكُها للأزهرِ فضلَه، وأعادوا له ذِكْرَهُ، ونَشَرُوا على الملأِ ظِلَّهُ، فرجعت إليه حياتُه، وعاوده نشاطُه، وصار أكبرَ جامعةٍ إسلاميةٍ، تُقْطَعُ إليه البيدُ والْفَيَافِي، وتُضْرَبُ له أكبادُ الإبِلِ.

حتى جلس على عرش مصرَ نصيرُ العلمِ ، وعِمَادُ الدِّينِ ، جلالةُ المَلِكِ أحمد فؤاد الأول ، وأخذ يُصْلِحُ كلَّ مرافقِ الحياةِ فى مصرَ وَيُثَبِّتُ دعائمَ رُقِيِّها ، وجعل أساسَ الإصلاحِ نَشْرَ العلمِ فى كل مكان ، لم يَشْغَلْهُ إحياءُ العلومِ الحديثةِ ، وإنشاءُ المعاهدِ والمدارسِ عن الأزهر وأثَرِه ، بل عرف أننا أمةٌ شرقيةٌ يحتكمُ فينا دينُنَا ، ولنا أخلاقُنا وعاداتُنا ، وعرف أن الأزهرَ منبعُ حُمَاةِ الدينِ وحُرَّاسِ الأخلاقِ ، فاتجهتْ نيتُه إلى ترقيةِ شأنِه ، وتهذيبِ نظُمِه ، وإصلاحِ أساليبِه ، وتعليم طُلَّابِهِ عُلوماً حديثةً ، وفنوناً جديدةً ، حتى إذا أتَمُّوا دِرَاسَتَهم انفَسَحَ أمامَهم مجالُ الحياةِ ، واتسعَ ميدانُ العملِ ، وبزغوا فى البلادِ بزوغَ الكواكبِ فى السماء ، وكانوا أحْسَنَ أُسْوَةٍ للعالَمِين ، وخيرَ هُدَاةٍ للعاصين ، وقَضَوْا بين الناس بالعدلِ ، وأرشدوهم إلى ما ينفعُهم فى معاشهم ومَعَادهم ، وهذبوا من أخلاقهم كلَّ مُعْوَجّ ، وأقاموا كلَّ مائلٍ .

أرأيتَ يا هذا كيف عُنِيَ المليكُ المحبوبُ بالأزهر وداخليه ، والدِّينِ وطالبيه ، والقرآنِ وحافظيه ؟ . أرأيت كيف طَبَعَ من القرآنِ الكريمِ مِئَاتِ الآلافِ من المصاحفِ بأبدعِ خطٍ ، عَلَى أمْتَنِ وَرَقٍ ، وأَمَرَ بنشره بين ممالكِ العالمِ الإسلامِيّ طُرًّا ؟ أليس المليكُ بعد هذا نصيرَ العلمِ ، والدينِ ، والأخلاقِ ؟ .

(٥٧)
الجامعة المصرية

لَهُ اللهُ ما فَتِىَ منذُ وَلِىَ أمرَ مصرَ يبذرُ بذورَ العلمِ الصحيح فيها ، وينشرُ المعارفَ بين ربوعها ، ويُسَهِّلُ لطالبي العلمِ المشَارعَ ، ويُذَلِّلُ لهم المناهلَ ، فمِنْ معاهِدَ تُشَيَّدُ ، ومدارسَ تُنْشَأُ ، وكُتُبٍ تؤلفُ ، ومعلمين يُعَلَّمون ، وجامعةٍ أزهريةٍ تُنَظَّمُ ، وإجبارٍ للناس عَلَى تعليم أبنائهم ، إلى غير ذلك من ضروب التشجيع ووسائل الترغيب ، لم يَكْفِ مليكَنا ذلك ، بل أعْظَمَهُ وهو باغِى الكمالِ لأمتهِ وناشدُ الرقى لشعبهِ ، أن يَرَى أبناءَ أمتهِ إذا أرادوا النبوغَ فى العلوم ، والتَّبَحُّرَ فى الفنون ، لم يجدوا سبيلَ ذلك مُعَبَّداً فى بلادهم بل يَهْجُرُوا الأوطانَ ، ويفارقوا الأهلَ والخُلاَّنَ ، ويَرْكبوا متونَ البحارِ ، ويَستهدفوا لآلام الغربةِ وخطَرِ الأسفارِ ، ويعيشوا فى ديارٍ لم يألَفُوها ، ويُعاشروا بيئاتٍ لم يعرفوها ، ويَرْضَعوا لِبَانَ العلمِ من أفْوَاهِ الأجانبِ الذين قد لا يُهِمُّهم سَعْدُنا وشقاؤنا ، وارتقاؤنا وانحطاطنا ، ثم يعودُ هؤلاء المبعوثون وقد غلبت العُجْمَةُ إعْرابَهم ، ومنهم شَقِىٌّ وسعيدٌ .

رأى جلالته أن يتلافى هذا النقصَ، ويُتمِّمَ صَرْحَ العلمِ فى مصرَ ويُريحَ المتعلمين من المشاقِ ويُيَسِّرَ لهم سُبُلَ تحصيلِ العلمِ، ويحتفظَ بأخلاقِ الناشئين، ويُمَتِّعَ أمته بمزايا الاستقلالِ، ويعيدَ لمصرَ مَجْدَها القديمَ، فأصدرَ أمرَهُ الكريمَ بإنشاء جامعةٍ مصريةٍ تُحاكِي أعظمَ جامعاتِ العالَمِ يَدْخلُها المتعلمونْ بعد أن يكونوا قد قطعوا مراحلَ التعليم الابتدائيةَ والثانويةَ والإعداديةَ

أنشأها المليكُ وعَهِدَ بإدارتها الى فيلسوفٍ من فلاسفةِ مصرَ العظامِ، وبالتعليم فيها إلى جهابذَةِ العلماء، وفلاسفةِ الحكماء من الأوربيِّينَ والمصريين. وعما قليلٍ يظهرُ ذكاء المصريِّ، وأثرُ إدراكِهِ وفهمِهِ، فى حلِّ المعضلاتِ العلميةِ، ومعرفةِ أسرارِ المخترعات الجديدةِ، وعما قليلٍ يُشارُ إلى جامعةِ مصرَ بالبنانِ، ويَحُجُّ اليها الطُّلَّابُ من كل مكانٍ، يغترفون من بحار العلم فى مصرَ الحديثةِ، كما كانوا يغترفون من بحار العلم فى مصرَ القديمة

هَدَى اللهُ أمتنا طريقَ الرشادِ، وكفاها شرَّ العوائق، وحرس لها مُصْلِحَ جامعتِها الأزهريةِ، التى تفاخرُ بها سائرَ الأممِ الشرقيةِ وكلأ بعين عنايته منشِئَ جامعتِها المصريةِ، التى سيتخرجُ فيها بُناةُ مجد مصرَ وبُغاةُ خيرِها وسعادتِها

(٥٨)

مَصْرِفُ (بنك) مِصْرَ والشركات

المصارفُ هى بيوتُ الأموالِ التى يشتركُ فى تأسيسها مَنْ شاء من ذوى المالِ فى الأمةِ، ورءوسُ أموالها وأموالِ الشركاتِ، تنقسمُ الى أسهمٍ ذاتِ ثمنٍ زهيدٍ يَسْهُلُ معه على السوادِ الأعظمِ من الأمةِ، أن يشتركَ فى بناء أساسِ هذا المَصْرِفِ أو الشركةِ ولكل إنسانٍ أن يأخذَ نصيبَه من أَسْهُمِ رأسِ مالِ الشركةِ أو المَصْرِفِ، ما دام قادراً على دفع الثمنِ، وما دامَ غيرَ مخالفٍ لقوانينهِ ونُظُمِهِ الداخلية. وإذا تمَّ تأسيسُ المصرفِ أو الشركةِ واستُعْمِلَ رأسُ المالِ فى الأغراضِ التجاريةِ التى أُنْشِئَ من أجلها عاد ذلك بربحٍ عظيمٍ على أصحابِ رءوسِ المالِ. وَوُزِّعَ هذا الربحُ على الأنصبةِ توزيعاً متساوياً، وأخذَ كلُّ ذى سَهْمٍ من أسهمِ رأسِ المالِ نصيبَه من الربح. وهكذا يتسنَّى للفقيرِ وللغَنِىِّ أن ينتفعَ كلٌّ منهما بما ادَّخر من المال قليلاً كان أو كثيراً. وهكذا يمكنُ أن تُجْمَعَ القناطيرُ المقنطرةُ من الذهبِ والفضةِ من أيدى مَنْ لا يحسنون تنميةَ المالِ وتثميرَه. ويمكنُ أن تتألَّفَ من

المقاديرِ الصغيرةِ مقاديرُ كبيرةٌ تقومُ بأعمالٍ خطيرةٍ ، تعودُ على الأمةِ بالرقىّ والإصلاحِ ، وعلى المشتركين بالربحِ العظيمِ .

لعلك تُدْرِكُ بعد هذا البيانِ أن المصارفَ والشركاتِ من أكبر الوسائلِ فى ترقيةِ الأُمَمِ فإنها تقومُ بما لا يَضْطَلِعُ به الأفرادُ من الأعمالِ الجليلةِ ، كإنشاء السككِ الحديديةِ ، والترامِ والأسواقِ والمتاجرِ العظيمـةِ ، والنقْلِ ، والزراعةِ ، والشركاتِ الصناعيةِ الـكُبْرَى ، وشركاتِ التعاونِ ، وإقْرَاضِ الزُّرَّاعِ ، والصُّنَّاعِ ، والتُّجَّارِ الاموالَ . وتسهيلِ سُبُلِ التجارةِ والمعاملاتِ بين أفراد العالمِ ودُوَلِهِ

رأى ملوكُ الدولةِ المحمديةِ العَلَوِيةِ أن يُرَقُّوا مِصْرَ ، وأن يُوجِدوا بينها وبين دُوَلِ العالمِ روابطَ ألفةٍ ومنفعةٍ ، فأفسحوا المجالَ لذوى المالِ من الأممِ الغربيةِ ، فأقبلوا على مصرَ من كل فجٍّ ، وأسسوا فيها المصارفَ الكبيرةَ ، والشركاتِ العظيمةَ التى ساعدت مصر على السير فى طريقِ الرقىّ والتى عادتْ على مؤسسيها بأرباحٍ لا سبيلَ لحصرِها . وهكذا انبثتْ المصارفُ وفروعها . والشركاتُ وَرُسُلُها فى أحشاءِ مِصْرَ ، واحتلتْ البلادَ احتلالاً ماليًّا واقتصاديًّا ، وأصبحَ فى عُنُقِ كلِّ مصريٍّ غُلٌّ من أغلالِ

الديونِ الأجنبيةِ ، حتى إذا جلس على الأريكةِ المصرية، جلالة الملكِ السعيدِ احمد فؤاد الأول عمَّ الرخاء مصرَ ، وامتلأت خزائن سَرَاتها مالاً ، وقضى أكثرُ المصريين ديونَهم . وبَدَا لبعضِ ذوى الغَيْرَةِ والحَميَّةِ الوطنيةِ ، أن يجعلوا لمصرَ فى بابِ المصارفِ المالية والشركاتِ مقاماً معلوماً ، فأسسوا مَصْرِفَ مِصرَ ، وَدَعَوْا أبْنَاء الأمةِ للاشتراكِ فى هذا البناء المباركِ ، فلبىَّ الناسُ الدعاء ، وأقبلوا يَتَهافَتُونَ رجالاً ونساء شِيباً وشُبَّاناً ، على شِراء أسهمِهِ ، وسَرْعَانَ ما أنشأ المَصرفُ المكاتِبَ ، والمخازنَ ، والفروعَ فى نواحى البلادِ ، وتناولَ أعمالَ المصارفِ الماليةَ ، والتجارية . وتبَارى المصريون فى معاملتهِ وإيداعِ أموالهم خزائِنَهُ ، وها هو ذا يؤدِّى كلَّ عامٍ ربحاً للمشتركين فيهِ جزيلاً ، ويسعى فى إنشاء الشركاتِ التجاريةِ ، والصناعيةِ ، ويشتركُ فى تأسيسها . ولقد بلغَ من ثقةِ الحكومة ومجالسِ المديرياتِ والمجالس البلدية به ، أن اتجهت النيةُ إلى إيداعِ أموالهن خزائِنَهُ

ولا شك فى أن الفضلَ فى إنشاء هذا المصرفِ ، يؤولُ الى الرخاء المالىِّ العظيمِ والغَيْرَةِ الوطنيةِ اللذَيْنِ شَمِلا مصرَ فى عصر مليكِها المحبوبِ أحمد فؤاد الأول . جعل اللهُ أيامَه أيامَ يُمْنٍ ، ورخاء وسعادةٍ وإقبالٍ

(٥٩)
السُّفَرَاءُ والمُمَثِّلون

استبانَ للعالَمِ بعد طولِ الجَفَاءِ والتنافُرِ، والبغضِ والتناكُرِ أن خيرَ وسيلةٍ لرقيِّ المدنيةِ، والحضارةِ، والعلمِ، التعارُفُ، والتآلفُ والارتباطُ بروابطِ المنفعةِ الماديةِ، والأدبية، فأنشأتِ الدولُ الطُّرُقَ البحريةَ البخاريةَ، والبريديةَ، والبرقيةَ، وطرق المواصلاتِ البريةَ، واتصلتْ كلُّ دولةٍ بالأُخرى، وتبادلَنْ المتاجرَ والمنافعَ، واقتضى ذلك أن يكونَ لكلِّ أُمةٍ سفراءُ ونوابٌ في سائرِ الأُممِ، يُمَثِّلُونَها، ويتكلمون بِاسْمِها، ويَسْعَوْنَ في ترقيةِ متاجِرِها، ومصانِعِها، ويدافعون عن كَرَامَتِها وشَرَفِها، ويُوافونَها بأخبارِ الدُّوَلِ التجاريةِ، والماليةِ، والاقتصادية، والصحيةِ، والعلمية، والساسية، حتى تُصَادق منهنَّ ما تَرَى الخيرَ في مصادَقَتِها، وتَحْذَرَ شرَّ ما تتوجَّسُ منها خِيفَةً، وتَتَّجِرَ مع هذِهِ، وتُقَاطِعَ تلكَ، أَخْذاً بالأخبارِ التي تصلُ اليها من هؤلاء المبعوثين، الذين بَثَّتْهُم في نواحي الدنيا، وجعلتهم عُيُوناً تُبْصِرُ بها عن كَثَبٍ

أحوالَ الأمم رقيًا، وانحطاطًا، ودًّا وإخلاصًا.

مضى العالَمُ فى هذا السبيلِ دهرًا طويلاً، يجنى ثمارَ هذا التعارُفِ التِّجاريةَ والسياسيةَ، ومصرُ بمعزِلٍ عن الدولِ لا تَعرِف من أحوالهن شيئًا، إللهم الاَّ ما تتلقفُه من بعض الصحفِ، وأفواهِ التجّارِ الأجانبِ، وإذا حَزَبَهَا أمرٌ، أو ألَمَّ بها خَطْبٌ، أو أريدتْ بسوءٍ، أوْ جَدَّ ما يدعُو إلى مبادلاتٍ دوليةٍ، أو محادثاتٍ عالَميَّـةٍ، نابَ عنها فى ذلك، سُفراءُ الدولِ ذواتِ السيادةِ عليها، كالدولة العليـةِ أولاً، ثم الإنجليزيةِ ثانيًا، وأظنُّكَ تَعرِفُ أنَّ هذا السفيرَ الأجنبيَّ، يُؤْثِرُ نَفعَ بلادِه غيرَ ناظرٍ إلى صالحِ مِصْرَ، ولا منفعةِ المصريين، عَزَّ ذلك على مَنْ نالتْ على يده استقلالَها، ومانِحِها دستورَها، ومُثقِّفِ عقولِ أبنائها، جلالةِ مولانا الملك أحمـد فؤاد الأول، ورأى أنَّ اعتمادَ مملكتِهِ فى مخابراتهـا السياسيةِ والتِّجاريةِ على ممثِّلِى غيرها، ثُلْمَةٌ فى صَرْحِ استقلالِهَا، وصَدْعٌ فى جِدَارِ حُريتها، فأمر حرسَه اللهُ، أن يُختارَ من بين أبناء الأمة، رجالٌ ذوو كَفاءةٍ وعلمٍ بالأمور السياسيةِ والشئونِ التجاريةِ، والقوانين الدوليةِ، وأنْ يكونوا ذوى ذكاءٍ

فطْرِيٍّ ، ووطنيةٍ صادقةٍ ، وأْن يُبْعَثَ بهؤلاء إلى عواصمِ دُوَلِ العالَمِ ، ومُدُنِهِ الكبيرةِ ، ليكونوا سفراءَ مصرَ فى تلك الدول ، وليمثلوها هناك ، ويَسْعَوْا فى رواج تجارتِها ، ويُعْلِنوا عن حاصلاتِها وَيُقَوُّوا أواصرَ الألفةِ والمودَّةِ بينها وبين دول العالم ، وَيُفَهِّموا المَلأَ ، أن فى وادى النيلِ أُمةً فَتِيَّةً وشَعْباً ناهضاً ، أخذ بيدِه مليكٌ يَدِينُ بترقية شئونِهِ ، أفلا يجدُرُ بنا بعد ذلك ، أن نتوجهَ إلى اللهِ بقلوبٍ خالصةٍ ، ونفوسٍ مطمئنةٍ ، ونسأله أن يتولَّى عنا جَزَاءَ مليكِنا ، ويُثَبِّتَ قواعدَ مُلْكِهِ ، ويُنْبِتَ وَلِيَّ عهدِهِ الكريمَ نَبَاتاً حَسَناً ؟

---

(٦٠)

الهيئاتُ النيابيةُ

عَلِمَ اللهُ أنَّ مصرَ أخذتْ نصيبَها كاملاً غيرَ منقوصٍ من الظلمِ والاستبدادِ ، قبل أن تُشْرِقَ فيها شمسُ الأسرةِ المحمديةِ العلويةِ ، وأن الجبنَ والاستسلامَ للحكامِ والنزولَ عَلَى إرادتهم ظالمين أو عادلين ، امتزجتْ بدماء المصريين امتزاجاً ، فأراد تقدَّستْ أسماؤه ، وتنزهتْ صِفاتُه ، أن تنالَ من الحريةِ قسطاً يُنْسيها أَلَمَ الظلمِ وَإِعْنَاتَ الحُكَّامِ ، فمنَّ عليها بملوكِ هذه الأُسْرةِ العلويةِ الشريفةِ يُنقِذونها ، ويَشْرَعون لها من الحكمِ النيابِيِّ أنواعاً تلائمُ تدرُّجَها فى سبيلِ المدنيةِ والحضارةِ .

فمجالسُ المديرياتِ وهى من صُنْعِ أيديهم ، هيْئاتٌ نيابيةٌ ، يُنتخبُ أعضاؤها من أبناءِ الأمةِ الأكْفاء ، تتَوَلَّى ترقيةَ التعليم وتهذيبَ الأخلاقِ ، وتُعاوِنُ الحكومةَ فى إقامةِ جِدارِ الأمنِ فى البلادِ ، وفى الشئون الزراعيةِ ، والتجاريةِ ، والرىِّ ، وغير ذلك والمجالسُ البلديةُ ، والمحليةُ ، والقَرَويةُ ، وهى من مُنْشآتِهم ،

ينتخبُ أعضاؤها من أهلِ العلمِ ، وذوي المصالحِ في المدن ، وهي التي تُحَضِّرُ المدائنَ ، وتُرَقيها ، بما تُنشئُ فيها من متنزهاتٍ ، وشوارعَ ، وأنابيبِ ماءٍ ، وكهرباءٍ ، وبما تُشَيِّدُ فيها من مستشفياتٍ وملاجئَ ، ومعاهدَ ، ومسارحَ ، وما إلى ذلك من وسائلِ التمدينِ والتحضيرِ ، والمجالسُ الحِسْبيةُ ، وأعضاؤها يُخْتارون من ذوي الأخلاقِ الفاضلةِ ، والقلوبِ الرحيمة ، وتَتَوَلَّى حِرَاسَةَ أموالِ السفهاء ، والمجانين ، والأيتامِ ، وتَنْمِيَتَها ، وتَنْصِيبَ الأوصياءِ والقُوَّامِ ، ولِجَانُ الشياخاتِ : وأعضاؤها يختارون من ذوي الدِّرايةِ بواجباتِ العُمَدِ ، ورجالِ الأمْنِ في الديار ، وهم الذين يُنَصِّبون العُمَد والمشايخَ في مناصبهم ، ويتولَّوْن تأديبَ المهملين منهم ، بالاشتراك مع رجال الإدارة الكِبارِ ، ولجانُ الريِّ وينظرُ أعضاؤها في عِقابِ مَن يعتدون على جسور النيل وجداوله أو يسترقون ماءً ليس لهم فيه نصيبٌ ، ولجانُ النيلِ وعملُها تدبيرُ الرجالِ والخفراء لحماية جسوره من التآكُلِ والانْهِيارِ .

وهناك لجانٌ أُخرى نيابيةٌ ، بعضُها للتوفيقِ بين المتنازعين من الأسرات ، والمتجاورين من المُلَّاك ، وبعضُها لمعاونةِ الحكومةِ

فى إدارةِ شئونِ البلادِ : تلك هيئات نيابية ، يتطوعُ أعضاؤها لخدمة بلادِهم ، والعملِ على ترقيتها ، وإذا أنتَ بحثتَ فى تاريخها وأعمارها ، وجدتَها جميعها من تشريع ملوكِ هذه الأسرةِ المباركة ، وعرفت أنهم نزّاعون الى الحكم النيابى ، واستشارةِ أولى النُّهَى من أبناء الامةِ ، منذ ملّكهم اللهُ فى الأرض ، وحسبُكَ دليلاً على ذلك ، ما ختمَ بِهِ سليلُ المجد ، جلالةُ مولانا الملكُ أحمد فؤاد الأول ، تلك الروايةَ العجيبةَ ، ذلك هو الدستورُ المصرىُّ والمجلسُ النيابىُّ ، الذى جادت به نفسُه عن طِيبِ خاطرٍ والذى جاء أسطعَ بُرهانٍ على سُموِّ نفسِه ، وامتلائها بحب الخيرِ لأمته و بلادِه ، عاش المليكُ ، حتى يرى أغراسَ إصلاحه لبلاده أثمرتْ ، ويراها ألمعَ دُرّةٍ فى جبين الدنيا .

---

(٦١)
الجمعيات

كما أن للأرباح المادية شركاتٍ ومصارفَ، يشتركُ في تأسيسها ذوو الأموالِ، ثم تُستثمَرُ رءوسُ أموالِها، ويُوزَّعُ الربحُ على المشتركين، كذلك للأعمال الخيريةِ شركاتٌ وجمعياتٌ، يشتركُ في تأسيسها أُولو القلوبِ الرحيمةِ والأنفسِ الكريمةِ، تتألفُ رءوسُ أموالِها من هؤلاء الأخيارِ، ثم تُنفَقُ في أعمال البرِّ والإحسانِ، وفيما يعودُ على الأمةِ بالرقي والسعادةِ، ومؤسسوها لا يبغُون من وراء هذا العمل جزاءً ماديًّا، ولكنَّ لهم شعوراً فيَّاضاً، وضمائرَ حيَّةً، تُنسيهم الأَثَرَةَ والأنانيةَ، وتدفعُهم إلى الأخذِ بيد الضعيفِ، ليجمعوا حولهم قلوباً راضيةً، وألسِنةً داعيةً، وليستدِرُّوا بذلك كَرَمَ اللهِ وبِرَّهُ، ويُزَكُّوا أموالَهم ونِعَمَ اللهِ عليهم.

وإذا أنت أردتَ أن تعرفَ شيئاً عن الجمعيات المصريةِ، فهناك الجمعيةَ الخيريةَ الإسلاميةَ، التي انتشرت مدارسُها في كثيرٍ من مدائنِ القطرِ، وحملت من التعليم عِبئاً كبيراً تَحْذُو حَذْوَها في

ذلك جمعيةُ العروةِ الوُثقى بالإسكندريةِ ، وجمعيةُ المساعى المشكورةِ بالمنوفيةِ ، والجمعيةُ الخيريةُ القبطيةُ وغيرُها ، وهناك جمعياتٌ أُخرى كثيرةٌ ، تؤدى للإنسانية أَجلَّ الأعمالِ ، كجمعياتِ الإسعافِ ، التى تعملُ فى حوادث الغرقِ ، والحريقِ ، والإغماءِ ، والتصادمِ ، على دفعِ غوائلِ الموتِ ، وجمعياتِ الهلالِ الأحمرِ ، التى تُعينُ الجرحَى ، والمرضَى ، وتتولَّى علاجَهمْ ، وتَمْرِيضَهم وتخفيفَ آلامِهم فى الحروب ، وجمعيةِ المُوَاساةِ الإسلاميةِ ، التى تَشَعَّبَتْ شرايينُها فى جسمِ الأمةِ ، ودخلت كلَّ دارٍ ، وأغاثت كلَّ ملهوفٍ ، وجمعيات الرفقِ بالحيوانِ ، التى عَمَّ فضلُها وانتشر خيرُها ، والجمعياتِ الزراعيةِ ، والصناعيةِ ، والغُرَفِ التجاريةِ ، التى يَبْذُلُ أعضاؤها النفْسَ والنفيسَ فى ترقيةِ الزراعةِ ، والصناعةِ ، والتجارةِ فى البلاد ،

لعلك يا هذا تَذْكُرُ قَوْلَ القائلِ (الناسُ على دِينِ مُلُوكِهِم) ، نَعَم جرى المصريون فى إنشاء الجمعياتِ الخيريةِ على سُنَّةِ مليكِهِم ، صاحبِ الجلالةِ أحمد فؤاد الأول ، الذى قضى حياتَه الشريفةَ يخدُمُ الإنسانيةَ ويَبَرُّ بها ، ويُنْفِقُ فى سبيلِها المالَ والراحةَ ، وأظنك لا تنسَى أن جلالتَه كان رئيساً للجامعةِ المصريةِ منذُ

أنشئت ، ولكنْ أفادها بماله وبآرائه السديدة ، وبما بَذَلَ لطلّابها من عناية ومؤازرة ، حتى أتموا دراستهم فى جامعات أوربّة بمساعى جلالته المشكورة ، ولعلك لستَ ناسياً أن جلالتَه كان رئيساً لجمعيات الهلال الأحمر ، فى إبّان الحرب العالمية ، فسار بها سيراً جعلها من أرقى جمعيات العالَم ، وأن جلالتَه كان رئيساً لجمعية الإسعاف ، والجمعية الجغرافية ، وأنه كان فى وقت واحد رئيساً لاثنتى عشْرَةَ جمعيةً خيرية ، يُمِدُّها بماله طيّبَ النفس مُرْتاحَ الضمير ، أليس المصريون بعد ذلك جديرين بأن يَبذلوا فى هذا الباب ما يُقيمُ جِدارَ الإنسانية ، اقتداء بمليكهم الذى طُبِعَ على حبِّ الخير لبلاده وشعبه ؟

إن مليكَنا ظفِرَ من قلوب المصريين بأخصب مكانٍ للحُبِّ ، وجلس على عُروشِها قبل أن يَجلِسَ على عَرْشِ مصرَ .

---

(٦٢)

الفنون الجميلة

لمصرَ فى الفنون الجميلةِ قَدَمٌ راسخـةٌ منذُ القِدَمِ ، تَشهدُ بذلك آثارُها الخالدةُ ، ونقوشُها ورسومُها التى وقف أمامَها علماء الأجيالِ الجديدةِ خاشعين مشدوهين ، غير أن الجهلَ الذى خيَّم على ربوعها ، والظلمَ الذى حاق بها قُبَيْلَ هـذا العصرِ الحديثِ ، أَنْسَيَاها الجمالَ ، وَرَغَّبَاهَا عن الكمال ، وأفقداها سلامةَ الذَّوْقِ ، ورِقَّةَ الطبعِ ، ودقةَ الصنعِ ، وإتقانَ الأعمالِ ، وأفَادَا أهلَها خشونةً وغِلْظَةً ، ولستَ تجدُ غليظَ الطبعِ فَنِّيًّا .

على أن الفنونَ الجميلةَ لا تروجُ أسواقُها فى البلاد ، إلا إذا كانت قد قطعت فى الحضارة والمدنية شوطًا بعيداً ، والفنون الجميلةُ مع ذلك ، لا تأخذُ زُخْرُفَهَا وتتزيَّنُ ، إلا إذا وَجَدَ الفَنِّيُّون تشجيعاً ومعونةً من أفراد الأمةِ وملوكِها .

وإذا كنت قد عرفتَ أن جلالةَ مليكِنا المحبوب ، نشأ فى حِضْنِ المُلْكِ التليدِ ، وترعرعَ فى أرقى بلاد العالمِ مدنيةً ، وإغراماً

بالجمالِ وفنونِه ، فاعْرِفْ أنه ما كاد يَطمئنُّ على عرش مصرَ ، ويقودُ سفينتَها إلى شاطئ المدنية والحضارة ، حتى بذلَ من عنايته للفنونِ الجميلةِ قسطاً عظيماً ، فأنشأ مدارسَ الزخرفةِ ، والرسمِ ، والخطِّ ، والنحتِ ، والتصويرِ ، والحفْرِ ، والوَشْيِ ، وأقبلَ الطلّابُ والطالباتُ على تعلّمِ الفنونِ الجميلةِ ، فَبَرَعُوا فيها براعةً لا تقلُّ عن براعةِ الغربيين ، حتى لقد بهرا الناسَ ما صنعتْ أيدى المصريين والمصرياتِ ، من المعروضاتِ الجميلةِ التى عُرِضَتْ فى معارضِ الصناعةِ والفنونِ ، ونال أصحابُها الجوائزَ والأوسمةَ من جلالة المليك ، وها هو ذا فنُّ الموسيقَى ، قد ارتقى فى عصر جلالته ارتقاء عظيماً ، وأُنشئتْ له الأنديةُ فى كثير من حواضرِ البلاد ، وأقبل عَلَى تعلّمِهِ أَرْقَى الرجالِ والنساء ، أما مسارحُ التمثيلِ وما يُمَثَّلُ فيها من الروايات ، فحدِّثْ عن رقيها ولا حرجَ ، وهى إذا ارتقتْ كانت مدارسَ للأخلاق وللتاريخ ، وإلزامُ تلاميذِ المدارسِ وتلميذاتها فى أيامنا هذه بتلقّى دروسِ الرسمِ ، والتصوير ، والتمثيل ، والخيالاتِ ، والموسيقَى ، فى مدارسهم ، أسطعُ بُرهانٍ على حب المليك ورجالِ حكومتِه للفنون الجميلة ، ولتربية الذَّوق السليم ،

والشعورِ الحيّ في نفوس الناشئين والناشئاتِ ، حتى يَنْشدوا الكمالَ والإتقانَ في كل أعمالهم ، ويتسنَّى للمصرى أن يجارىَ الغربيَّ في حُسْنِ العَرْضِ، والترتيب ، وتأليفِ الألوان والألحانِ، وما إلى ذلك من ضروب الجمالِ وفنونِ الكمال .

ولا شكَّ أن جلالةَ المليكِ السعيدِ الموَفَّقِ في كل أموره ، واصلٌ بشعْبهِ الكريمِ إلى أبعدِ غاياتِ المدنيةِ ، وأسمى مراتب الجمال ، كلَّلَ اللهُ مساعِيَه بالنجاح ، وجعله حِمًى لبلاده وأمته .

(٦٣)

عَصْرُ مصرَ الزاهرُ

إذا أنت سألتَ الصانعَ فى مَصْنعِهِ ، أو العاملَ فى معملِه ، أو الزارعَ فى حَقْلِه ، أو المستخدَمَ فى ديوانِه ، أو الطالبَ فى مَعْهدِه ، أو المرأةَ فى خِدْرِها ، أو العابدَ فى مَعْبَده ، أو التاجرَ فى حانوتِه ، عن أزهَى عصورِ مصرَ وأرخاها ، أجابَكَ على الفوْر . — عصرُ الملِكِ المحبوبِ أحمد فؤاد الأول — وساق لك أدلةً ساطعةً ، وبراهينَ قاطعةً .

نعم إن الزُّرَّاعَ المصريين وهم سَوَادُ الأمةِ الأعظمُ لم يمض عليهم عصرٌ كهذا العصرِ ، فهم أحرَارٌ فيما يزرعون ، وفيما يبيعون أو يدَّخرون ، وهم واجدون كلَّ ما يدعو اليه رُقِىِّ زراعتِهم ، ونماؤها ، من آلاتٍ زراعيةٍ ، وماشيةٍ ، وبذورٍ وماءٍ ، وهم يسكنون القصورَ الفخمةَ ، ويقتنُون الخيلَ ، والبغالَ والحميرَ ليركبوها وزينةً ، ويتخذون السيارات والعرباتِ ، وتمرُّ بقُراهم ومدنِهم القُطُرُ ، وتُنْشأُ فيها المدارسُ ، وما إلى ذلك من وسائل الراحةِ والاطمئنانِ فى الحياةِ

أما التجارُ ، فإنَّ المصارفَ المالية ، والرَّخاءَ العامَّ ، ورُقيَّ الزراعةِ ، وازدحامَ البلادِ بالسكان ، وانتظامَ طُرُقِ المواصلاتِ في جميع الديار، كلُّ أولئك جعلهم يربحون أرباحًا عظيمةً ويُقْبلون على تجارتهم آمنين شرَّ العواقب، وكذلك كلُّ ذِي صناعةٍ في مصرَ الآن يجِدُ سبيلَها مُعَبَّداً ، فالمتعلمُ يجدُ وسائلَ العلمِ في مصرَ مُيَسَّرةً مُسَهَّلَةً في كلِّ أرجائها ، والمسافرُ يجدُ القُطُرَ ، والسُّفُنَ والعرباتِ ، والسياراتِ ، والدراجاتِ ، قد انتشرت بين المدن والقرى انتشاراً عظيما .

والمريضُ يجدُ أسبابَ التداوِي كثيرةً أينما حلَّ ، وتكادُ البلادُ يَرتبطُ بعضُها ببعضٍ بالمِسَرَّاتِ ، والأسلاكِ البرقيةِ ، والمواصلاتِ البريديةِ ، ولا شك أن ذلك من أكبرِ أسباب الرقى ، والعدلُ منتشرٌ في نواحى الديارِ ، والأمْنُ مخيِّمٌ على جميع ربوعِ مِصرَ ، والمُتَنَزَّهاتُ البديعةُ ، والشوارعُ العظيمةُ ، والمسارحُ الهاتفةُ ، والمصائِفُ والمشاتِى ، والمعارِضُ ودورُ الآثارِ ، كلُّ أولئك من من أسباب الراحةِ ، ووسائل الرقى والمدنية ، ويكادُ المرءُ إذا طافَ بأحدِ شوارعِ عاصمةٍ من العواصِمِ المصريةِ ، يقفُ جامدَ الدَّمِ ،

شاخصَ البصرِ ، أمامَ قصورها الشاهقةِ ، وميادينها الواسعةِ ، وفنادقِها الكبيرةِ ، وأشجارها الباسقةِ ، ومتاجرها العظيمة ، ومصانِعها الرائجةِ ، وحياتها النشيطةِ ، وإذا هو دخل قصراً من القصور المصرية ، هاله ما يرى فيه من أثاثٍ بديع ، ورياش فاخرٍ ، وآنيةٍ يأخذُ جمالُها بمجامع القلوبِ .

على أن الانسانَ في كلّ بُقْعَةٍ من بِقَاعِ مصرَ يَجِدُ تسابُقاً عظيماً في ميدان الحياة ، ويجدُ إقبالاً كبيراً من العمالِ على أعمالهم وليس لمخلوقٍ في مصرَ أن يَزْعُمَ الآن أنه لا يجدُ عملًا يرتزقُ منهُ ، فإن وسائلَ الارتزاقِ فيها كثيرةٌ ، أليس هذا العصر هو عصر مليكِنا المحبوبِ أحمد فؤاد الأول ، الذى تتمنّى مصرُ أن يطولَ عُمُرُهُ ، وعُمُرُ وليّ عهدِه ؟

(٦٤)

الطُّلَّابُ يُناجون الأميرَ فاروقًا

أَيُّها الأميرُ — تلك صَفَحَاتٌ من المجدِ الخالدِ، والتاريخِ المجيدِ والذِّكْرِ العطرِ، سطَّرَ آياتِها البيناتِ آباؤُكَ الأكرمون، جئْنا نَنْشرُها بين يَدَيْ عصرِ أبيك الزاهرِ، ونستقبلُ بها حياتَك

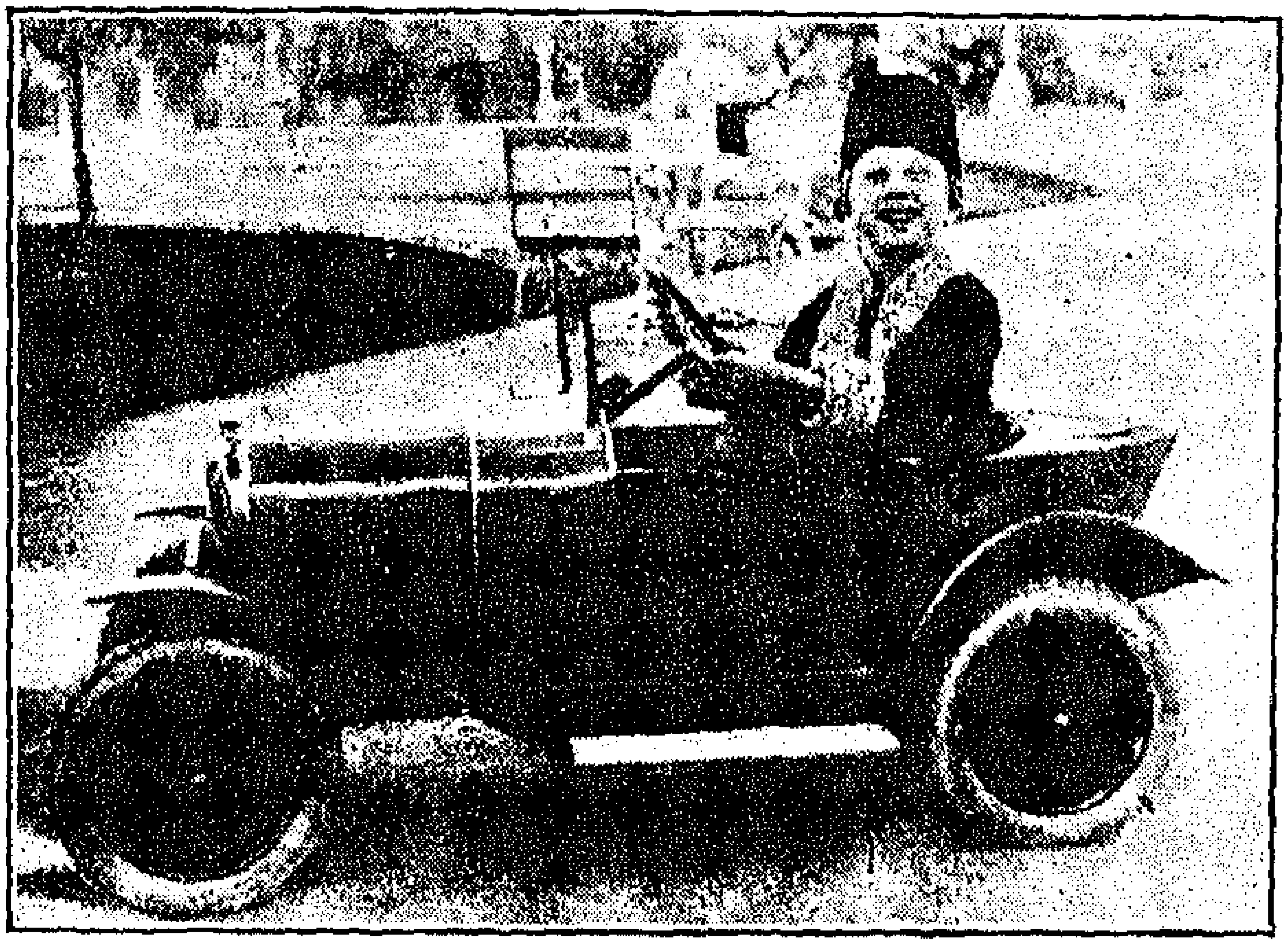

سمو الأمير فاروق

السعيدةَ، عِرفانًا لجميلِ السالفين، وترتيلاً لذِكْرِهم الجميلِ، وإذعانًا لمشيئةِ الحاضرين، وتَغَنِّيًا بآلائهم السابغةِ، لتعلمَ وأنت في مقتبلِ عُمُركَ المباركِ، ومَطْلَعِ حياتك الشريفةِ، أن على صَفَحَتي

النيلِ شعباً كريماً ، يَدِينُ بحب مَن أنقذوه من الجهل والاستبداد ، وأخرجوه من الظلماتِ إلى النور ، وأن الناشئين من فِتيانِهِ وفَتَيَاتِهِ ، لا يَقِلُّون حبًّا وتمجيداً لأشبالِ ملوكِ بيتِكم الكريم ، عن آبائهم وأمهاتِهم، فى تعلقِهم بأستارِ عروشِ هؤلاء الملوكِ المظفَّرين

أيُّها الأميرُ الكريمُ — لنا فى اسمِكَ الشريفِ خيرُ فألٍ ، فلقد فَرَقْتَ حين وُلِدْتَ بين حربِ العالَمِ وسِلْمِه ، وفرَقْتَ حين أشرقتْ شمسُك فى ربوعِ مصرَ بين الحمايةِ والاستقلالِ ، وفرَقْتَ حين بَدَوْتَ فى سمائنا بين حُكْمِ الفردِ والحكمِ النيابىِّ الدستورىّ وفرَقْتَ حين طَلَعْتَ علينا بَدْراً كاملاً بين جهلِ الشعبِ المصرىّ وعِلْمِهِ ، وفرَقْتَ حين تَشرفتْ بك مصرُ بين فَقْرِها وثَرائها ، وكنتَ فى كل أولئك بشيراً بزوالِ الضَّيْرِ ، وحلولِ الخَيْرِ ، وكان قدومك مباركاً وسعيداً .

أيها الأميرُ الخطيرُ ، إنَّا نقرأُ عَلَى جبينك الشريفِ آياتِ السعادةِ والهناءةِ ، ونرَى بين أسرارِ وجهِك الكريم علائمَ الذكاء والنُّبْلِ . ونُحِسُّ بين ملامحِ عينيك نظراً صائباً ، وحبًّا للخير عظيماً ونرى فى ابتسامتك العَذْبَةِ خيرَ بَشِيرٍ بابتسامِ الحظِّ فى وجوه المصريين .

أيها الأميرُ الجليلُ . استفتحنا عامَنا بذِكْرِ خيرِ الملوكِ ، وبطَلِ الأبطالِ ، جَدِّكَ الأكبرِ محمدِ عليّ باشا . وها نحنُ أولاء نختتِمُه بسيرةٍ يُعطِّرُ الجوَّ شَذَى عَرْفِها ، ويفوحُ على العالمينَ طِيبُ أريجِها . سيرةِ أبيك الذى طبَّقَ الآفاقَ ذِكْرُهُ . وفاض على مصرَ برُّه وفضلُه ، ونسألكَ بحقِّ هذا العزِّ التليدِ ، والمجد الذى تتوارثونه كابراً عن كابرٍ ، أن تنوبَ عنا فى المثول بين يَدَىْ جلالةِ مليكنا المعظمِ ، وتُعْلِنَ ولاءنا لذاتِهِ العليةِ وتعلقنا بعرشه المُفَدَّى بالمُهَجِ والأرواح نَضْرَعُ إلى الله العلىِّ القديرِ أن يُقِرَّ أعْيُنَ المصريين ببقائه وبقائك إنه سميعٌ مجيبٌ ، وصلى الله عَلَى سيدنا محمدٍ النبىِّ الأمىِّ وعَلَى آله وصحبه وسلَّمَ

فهرس الكتاب

صفحة	الموضوع
٣	تمهيد
٥	مجد مصر القديم
٧	مصر فى العصور الوسطى
٩	العصر المظلم
١١	الفوضى فى مصر وأسبابها
١٣	مصر تشكو الى الله
١٥	المصريون يسألون الله الخلاص
١٨	نشأة محمد على باشا
٢٠	محمد على باشا فى طريقه الى مصر
٢٢	الفرنسيون فى مصر
٢٤	ولاية محمد على باشا على مصر
٢٦	خواطر محمد على باشا
٢٨	عاقبة ظلم المماليك
٣٠	المصريون يشكرون لمحمد على باشا
٣٢	الشورى والاصلاح
٣٤	الزراعة (١)
٣٦	الزراعة (٢)
٣٩	القناطر الخيرية
٤٢	الجداول والقنوات (١)
٤٤	الجداول والقنوات (٢)
٤٧	الحيوان
٤٩	الاشجار
٥١	القطن
٥٤	أشجار الفاكهة
٥٦	الكتان والنيل (النيلة)
٥٨	الجيش
٦٢	التعليم (١)
٦٤	التعليم (٢)
٦٦	التعليم (٣)
٦٩	علماء أوربة فى مصر
٧٢	البعوث العلمية (١)
٧٤	البعوث العلمية (٢)
٧٧	الصناعة (١)
٧٩	الصناعة (٢)
٨٢	النساجة
٨٤	التجارة
٨٧	الحروب
٩٠	قلعة الجبل

صفحة	الموضـــوع
٩٣	عظمة محمد على باشا
٩٦	قسوة محمد على باشا
٩٩	البر بالانسانية
١٠٢	المغفور له اسماعيل باشا
١٠٥	سكة الحديد والبرق والبريد
١٠٨	قناة السويس
١١١	حديث النيل
١١٥	دار الكتب المصرية
١١٨	دار الآثار المصرية
١٢١	معرض الحيوان بالجيزة
١٢٤	مدنية اسماعيل باشا
١٢٨	جلالة الملك أحمد فؤاد الاول
١٣١	الرخاء
١٣٤	النقابات
١٣٧	تعليم البنات
١٤٠	الاعمال الخيرية
١٤٢	استقلال مصر
١٤٩	الدستور ودار النيابة
١٥٠	إصلاح الازهر الشريف
١٥٢	الجامعة المصرية
١٥٤	مصرف (بنك) مصر والشركات
١٥٧	السفراء والممثلون
١٦٠	الهيئات النيابية
١٦٣	الجمعيات
١٦٦	الفنون الجميلة
١٦٩	عصر مصر الزاهر
١٧٢	الطلاب يناجون الامير فاروقا
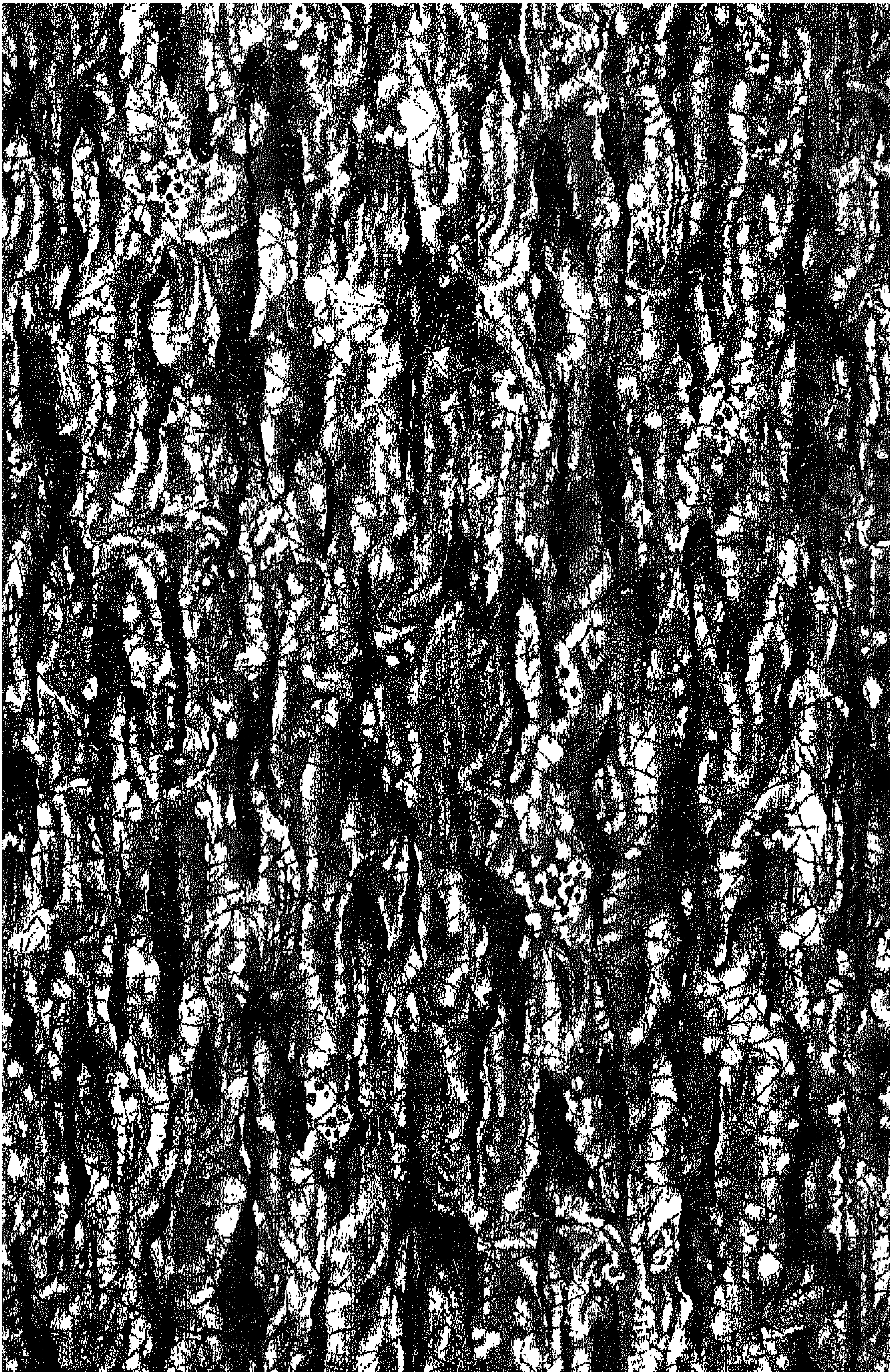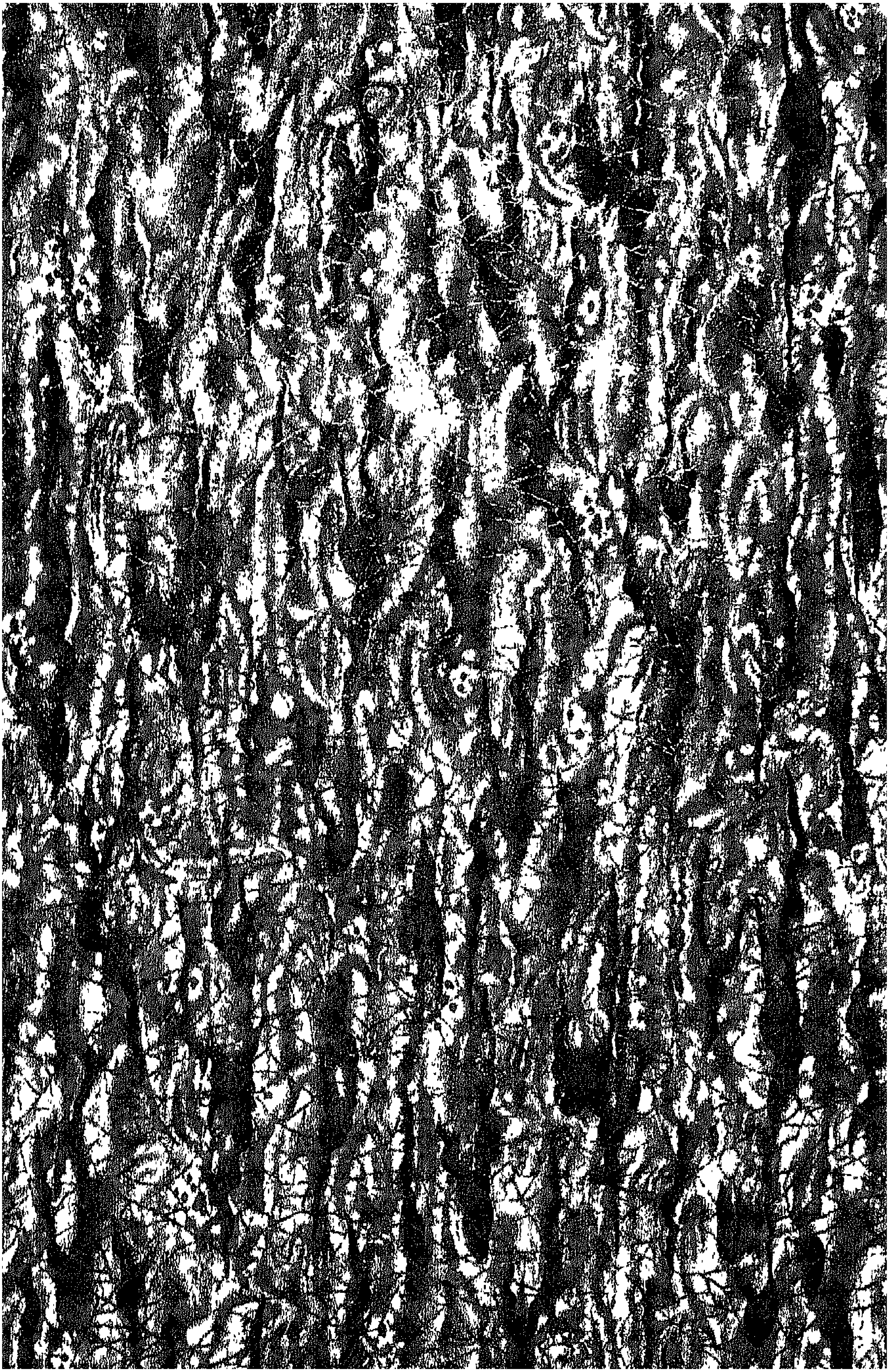
١/٤٠٠٠/١٠/١٩٢٦